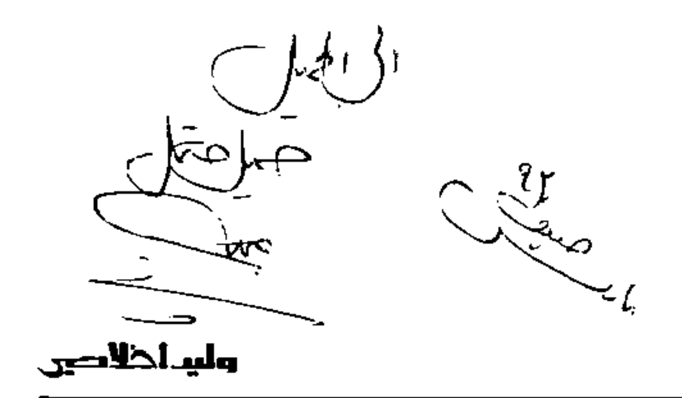
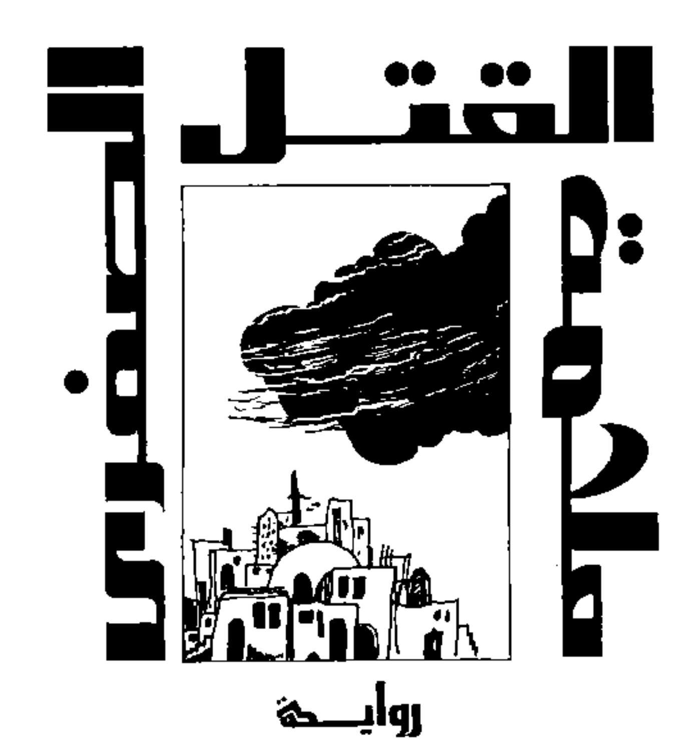


وليد اخلاصي

ملحمة القتل الصغرى

وليد اخلاصي





الناشر: دار كنعان للدراسات والنشر

دمشق - ص.ب (٤٤٣) - هاتف (٢٣٠١٩١)

عدد النسخ: (١٠٠٠) نسخة

الطبعة الأولى: ١٩٩٣

الإشراف الفني: جمال الابطح

شهادات عبر الزمان
في أخلاق هذا المكان

من أقوال سعاد تلو (ش. ف. باشا)، وهو من عتاة الولاة الذين تعاقبوا على ولاية حلب: « وإن أهل المدينة اذا اجتمع نفر منهم تحت سقف دار أو قبة معبد، وجعل يبرْبرُ بالدعاء على من يكره، فإن مصيبة ستحلّ به دون ريب. ولقد عانيت مرتين من هؤلاء الدعائين الملاعين. الأولى عندما دعوا عليّ بالحزن ففقدتُ بسيمة خانم، وهي زوجتي الثالثة وأجمل من عرفت من الحريم. كانت نائمة فلم تستيقظ. وقد ظلّ قلبي مجروحاً إلى أن عانيت من هؤلاء الدعّائين للمرة الثانية، فنقلت من الولاية ظلماً، لأجلس كالدرويش في هذه الدار المتواضعة في (قونية) أقيم الصلاة وأدعو الله أن ينتقم لي من أهل حلب الذين يضمرون السوء في قلوبهم وألسنتهم. »

من مقال لم يظهر، كتبه الأستاذ (ع. أ) رئيس تحرير مجلة الاستقامة التي أوقفتها سلطات الانتداب الفرنسي لأسباب أمنية:

ـ « إن شعبنا قادر على الفعل حتى في صمته. ولو فتشت في قلوب الناس وجدتها تعج بالنقمة على ما آلت إليه الأحوال وساءت فيه الأفعال. ويكفي القلب أنه لم يستسلم لذل، لذا تجد زيداً اذا أصابه الضيم، وكان لا يستطيع أن يرفعه باليد أو بالمجاهرة، فإنه يختزن الرغبة في قلبه فكأنها تبيّت طاقة تعادل رصاص الدمدم

نفسه. ولقد شاهدت بأم العين جندياً سنغالياً يتلوى من الألم فيسقط على الأرض قتيلاً وليس في جسده أثر لطعنة خنجر او ضربة فأس. وقد علمت أن ذلك الجندي المحتل قد أساء التصرف الى نسوة حي الـ . . . ، فتولدت الرغبة في قتله عند أهل ذلك الحي، وما هي الاّ أيام معدودات حتى دفع السنغالي ثمن جريمته فذهبت روحه إلى حيث تستقر في الجحيم. اللهم زدنا قوة آمين ».

وقد جاء في مذكرات الكولونيل (ادجار اس.) الذي شغل منصب المسؤول عن الانتلجانس سيرفيس في المدينة، ما يؤيد مقال رئيس تحرير مجلة الاستقامة، فكتب:

- « سمعت كثيراً عن العين التي تصيب، لكن أن يكون للسان فعل الأذى الملموس، فهذا لم أؤمن به إلى أن رأيته بعيني. كان لنا عين على الناس اسمه (عبس)، يوافينا بالأخبار ويسجل أسماء من يكره وجودنا، فإذا بدعاء جديد ظهر على شفاه الناس يردد عند الضيق أو الغضب (شوكة في حلق عبس)، إلى أن جاء يوم كان فيه رجلنا عبس، وهو قروي سكن المدينة طلباً للراحة من مشقة الفلاحة، يأكل السمك على مائدة الاوردنانس الخاص بي، فعلقت شوكة في حلقه وجحظت عيناه ولم يقدر طبيب على اسعافه ». وتقول مذكرات الكولونيل بعد ذلك:

- « وعندما جاءني خبر موت رجلنا عبس، ورأيته بأم عيني وقد قتلته شوكة في الحلق، قررت أن أوجه الاتهام إلى القتلة. لكنني فوجئت بعد أيام، وقد جمعت تقارير المخبرين أمامي وهي تحصي عدد من تفوّه بجملة (شوكة في حلق عبس)، أنه ليس بمقدوري أن أوجه الاتهام دفعة واحدة إلى آلاف الرجال والنساء والأطفال، وإلاّ أصبحت مجالاً لسخرية رجال القانون الفرنسيين والعرب على حد سواء. إلا أنني احتفظت بفكرة ثابتة عن أهل تلك المدينة، وهي أنهم يبيّتون في نفوسهم نية القتل أبداً. . ».

حدثني الدكتور (ك ع) وهو صاحب خبرة طويلة في الطب النفسي:

- « هل يمكن أن تصدق أنه من بين كل عشرة مرضى أشرف عليهم، هناك ستة فكروا في القتل وان كانوا لم يقوموا به فعلاً. وقد حاولت أن أتبين سبب تلك

نفسه. ولقد شاهدت بأم العين جندياً سنغالياً يتلوى من الألم فيسقط على الأرض قتيلاً وليس في جسده أثر لطعنة خنجر او ضربة فأس. وقد علمت أن ذلك الجندي المحتل قد أساء التصرف الى نسوة حي الـ . . . ، فتولدت الرغبة في قتله عند أهل ذلك الحي، وما هي الاّ أيام معدودات حتى دفع السنغالي ثمن جريمته فذهبت روحه إلى حيث تستقر في الجحيم. اللهم زدنا قوة آمين ».

وقد جاء في مذكرات الكولونيل (ادجار اس.) الذي شغل منصب المسؤول عن الانتلجانس سيرفيس في المدينة، ما يؤيد مقال رئيس تحرير مجلة الاستقامة، فكتب:

- « سمعت كثيراً عن العين التي تصيب، لكن أن يكون للسان فعل الأذى الملموس، فهذا لم أؤمن به إلى أن رأيته بعيني. كان لنا عين على الناس اسمه (عبس)، يوافينا بالأخبار ويسجل أسماء من يكره وجودنا، فإذا بدعاء جديد ظهر على شفاه الناس يردد عند الضيق أو الغضب (شوكة في حلق عبس)، إلى أن جاء يوم كان فيه رجلنا عبس، وهو قروي سكن المدينة طلباً للراحة من مشقة الفلاحة، يأكل السمك على مائدة الاوردنانس الخاص بي، فعلقت شوكة في حلقه وجحظت عيناه ولم يقدر طبيب على اسعافه ». وتقول مذكرات الكولونيل بعد ذلك:

- « وعندما جاءني خبر موت رجلنا عبس، ورأيته بأم عيني وقد قتلته شوكة في الحلق، قررت أن أوجه الاتهام إلى القتلة. لكنني فوجئت بعد أيام، وقد جمعت تقارير المخبرين أمامي وهي تحصي عدد من تفوّه بجملة (شوكة في حلق عبس)، أنه ليس بمقدوري أن أوجه الاتهام دفعة واحدة إلى آلاف الرجال والنساء والأطفال، وإلاّ أصبحت مجالاً لسخرية رجال القانون الفرنسيين والعرب على حد سواء. إلا أنني احتفظت بفكرة ثابتة عن أهل تلك المدينة، وهي أنهم يبيّتون في نفوسهم نية القتل أبداً. . ».

حدثني الدكتور (ك ع) وهو صاحب خبرة طويلة في الطب النفسي:

- « هل يمكن أن تصدق أنه من بين كل عشرة مرضى أشرف عليهم، هناك ستة فكروا في القتل وان كانوا لم يقوموا به فعلاً. وقد حاولت أن أتبين سبب تلك

الأفكار، فرأيت أن في القتل خلاصاً من مأزق أو ضيق أو عجز عن بلوغ حلم، ولم تمر بي حالة واحدة فيها رغبة القتل للقتل. »

وجاء في حديث المقدم (ح ح) مدير السجن المركزي، إلى طلاب السنة النهائية لكلية الحقوق الذين زاروه بعد جولة في أرجاء السجن:

ـ « لقد تعلمت بعد سنة من ادارتي لهذه المؤسسة، أن ما درسناه من قوانين لا يكفي للكشف عن نوايا الجريمة المتأصلة في النفوس. ومن أسف أن تلك القوانين ما زالت تحاول جاهدة أن تبرىء المتهمين. ثقوا أيها السادة أن كل مجرم في هذا المبنى يتمنى أن يموت القاضي الذي حكم عليه بالسجن، والحارس الذي يسهر على حجزه   نية القتل هو ما يجب أن نستأصله من شر حقيقي قائم في معظم أدمغة البشر. »

مدخل جغرافي ـ تاريخي لحكايات لها صلة بالقتل

تنفست المدينة غاز الفحم الذي تراكم منذ أيام استيراد السيارات والآليات الأخرى، ومنذ إحداث المصانع التي تعمل على الديزل. كان صدرها يمتلىء بالدخان الرمادي الذي ظلّ جاثماً عليه منذ الليلة الماضية بالرغم من ريح غربية جاءت فجأة، لتطرد وهج الصحراء القريبة، فسمع للفجر خرير جاف متقطع، كأنما رئة المدينة أصيبت بالتهاب مزمن. كانت مداخن المعامل بما فيها تلك التي أحدثت دون ترخيص قانوني، قد بدأت، مع انحسار الظلمة، في ضخ الهباب عبر فضاء فسيح، كأنه خيمة ملك زحفت جحافل جيوشه على حدود مدينة لا تملك من أمرها سوى الاستسلام.

وكانت نسبة الأقبية المعمورة في أبنية غرست في الأرض الحوارية، قد زادت في السنوات الأخيرة، وتدحرج بشر كثيرون على السلالم الضاربة في عمق تلك العمارات المتصاعدة عن سطح الأرض بسرعة وسهولة وتمرد على كل قانون، فامتلأت تلك الأقبية، التي تحولت إلى دور تتوارى خجلاً عن الأنظار، بهواء ثقيل ليس له أية صلة بالهواء القديم الذي اشتهرت به المدينة، فنصح آنذاك للمصدورين من كل بقعة أن يحجوا إليه طلباً للشفاء.

قبل تنامي العمائر على وجه المدينة، ظهرت تلال لم تكن من قبل. وكان جبل

العظام واحداً من تلك التلال المنتشرة على أطراف المدينة قبل توسعها في كل اتجاه. وبات جبل العظام الآن يطل على أحياء كثيرة تحيط به من كل جانب. كان يستقطب الأموات في بداية تكوّنه، واليوم يجتذب الأحياء، وبالرغم من اكتظاظ سفوحه المتكسرة بآلاف القبور وتعدد قممه، التي احتلت احداها ثلاث رايات خضر لأضرحةٍ، يزحف نحو قدسيتها الناس في الأعياد والأزمات، وبالرغم من أن الموت تحول إلى شاهدات مزخرفة بطلب الرحمة ونيل الجنة، فقد ظلّ العمران يزحف ببطء على الجبل كزنار يضيق يوماً فيوماً على الخصر، فتبرز نتوءات على السفوح وكأنها قبور يطلب أصحابها امتيازاً في خلود دائم. كانت البنايات الاسمنتية الفقيرة تتزايد، والقبور الحجرية أو المرمرية تبرز أكثر فأكثر. سباق ليس له قانون. العمران يتسابق مع نفسه في قبور تضم الأموات، وفي أقبية لا تدخلها الشمس، أو غرف ضيقة على الأسطحة المكشوفة تستقبل وهج آب بالصبر أو زمهرير كانون بالانتظار، وتتشقق قشور الاسمنت الرقيقة ويتكاثر عدد الأطفال القادمين إلى الحياة فيتراكضون على الأسطحة أو في الأزقة بحيوية تفوق قدراتهم على النطق بأي كلام.

كان الحثّيون قد وضعوا حجر الأساس لبعض التلال، ومنها جبل العظام الذي دشن في البداية بألف رأس مقطوعة من أجساد ألف من أهل المدينة المستسلمة، ثم أضاف رجل تاريخي اسمه الوثائقي هو هولاكو، على العظام المتكلسة طبقات جديدة من بقايا ضحاياه فانتعش التل، واستكمل تيمورلنك إعلان شأن الجبل بالآلاف من الرؤوس التي انحنت له خوفاً، لكن الخوف لم يشفع لها فتدحرجت، ليستقر كل منها في موقع لا خيار له فيه. وهكذا ابتدأ جبل العظام.

ثم بات الموت عادة مألوفة أيام الحرب وأيام الهدوء، فأكسبت تلك العادة جبل العظام جمالاً، فبدا وكأنه حديقة حجرية تعاقب عليها فنانون فطريون أو مدربون، وضعوا لمسات من الابداع، اجتذبت إليها الوحشة وقطعان الماعز التي يستهويها التسلق، وكذلك اللصوص ولاعبو القمار وأصحاب الشذوذ، وقبل كل شيء الزحمة حيث لم يبق شبر واحد من الأرض ليس فيه بصمة للموت واضحة.

وشهدت المقبرة التاريخية تلك صراعاً خفياً. فقد ادّعت مديرية الأوقاف أن ميزانيتها، المخصصة أصلاً لأعمال البر والاحسان، لا تسمح ببناء سور يضع حداً فاصلاً بين القبور وزحمة المباني، وحمّلت البلدية مسؤولية عزل الموت عن الحياة، كذلك مهمة تنظيم العلاقة بين الأحياء من البشر وأسلافهم من الراحلين. وردّ آنذاك رئيس البلدية الجديد على ما سماه تهرباً من المسؤولية، وكتب في مذكرة رسمية سرّب نسخة منها للصحافة، أن اندماج قيم الموت والحياة بعضها ببعض، هو من فلسفة الأوقاف نفسها، لذا فهي المسؤولة الأولى والأخيرة عن تشييد أسوار عالية تعزل المقابر التي ما زالت في قلب المدينة، عن التقدم العمراني. وظلت المعركة قائمة بين الجهتين، ليشارك فيها كتاب من جميع المشارب، فانتصر بعضهم لمديرية الأوقاف وآخرون للبلدية، واحتدم النقاش بعد ذلك ليصبح صورة عن صراع قائم بين مؤيدي السلف وبين أنصار الجديد، إلّا أن السور رغم ذلك لم يشيد.

وهكذا اختلطت الشوارع بالقبور، وغرست أساسات أبنية اسمنتية في بطن جبل العظام وضربت أسياخ الحديد برؤوسها المدببة في حفر قديمة، ما زالت آثار عظام بشرية تسكنها وقد اختفى منها أي أثر لهيكل عظمي متكامل، كذلك اختلط بكاء طفل في دار قريبة بعويل نسوة يندبن فقيداً لهن وجد له مرقداً بصعوبة. وتسبب ذلك التمازج في ألفة بين أهل الحي والقبور، فكان طفل صغير يُشاهد مثلاً وهو يتسلى بعظمة أو أن فتى مشاغباً يستخدمها سلاحاً في صراع تختلط منه الحرب الحقيقية باللعب.

ولم تكن تلك المقبرة الشامخة هي الوحيدة بتفردها في الارتفاع، بل كان ثمة مقابر أخرى عالية، كجبل الحوار مثلاً. إلّا أن ارتباط الاسم بالعظام جعل الناس في المدينة ينظرون دوماً إلى جبل العظام على انه تلّ تأسس أصلاً نتيجة لتعاقب عمليات قتل تاريخية، لهذا وقر في الأذهان أنه الأكثر تعبيراً عن أصل الموت في المدينة.

وجبل الحوار قديم أيضاً، ولكنه كان أول ما أطلّ على ساحة السجن الكبير

منذ قرون، حين شهدت أسواره العالية وزنزاناته الضيقة، وكان حداً فاصلاً بين خنادق القلعة ومقبرة جبل الحوار، ومنغرساً كالوعيد في قلب أحياء عاصرت أجيالاً معاقبة منذ القديم، كأنما قصد الوالي، الذي أمر ببناء السجن، أن يذكّر هذا السجن الناس بالعقاب الدنيوي وبهيبة الحكم، إلاّ أنه لم يكن ليتصور، أي الوالي، بأن سجنه الذي أشرف بنفسه على بنائه سيتحول إلى مساحة جرداء أزيلت منها الأحجار وبات مركزاً للآليات المهملة، ثم سمّي مرآباً للسيارات الحكومية المتزايدة العدد، ففاقت السيارات مجموع السجناء الذين كانوا يحجزون في فترة محددة. وقد لعب تاريخ تلك المساحة الجرداء في تحديد نوع تلك السيارات التي اقتصرت على القديمة منها والتي لا يستخدمها سوى الموظفين الصغار في دوائر الدولة المتكاثرة، وذلك لأداء مهمات ليس لها علاقة باستعراض الجاه والنفوذ.

ثم إن أحداً من الناس العاديين أو المؤرخين أو هواة اليوميات، لم يستطع أن يفهم ارتباطاً بين العقوبة التي كانت تلحق بالمحكومين من لصوص وقتلة، وبين تلك النهاية التي يؤول إليها الجسد بعد إنزاله في الجورة الكلسية، التي تحفر في بطن جبل الحوار المشرف على السجن القديم. إذ أنه كثيراً ما كان قاتل ما يقضي أيام عقوبته في ذلك السجن، بينما ضحيته ترقد في قبر يطل على الساحة التي كان السجناء فيها يتنفسون الهواء مساء كل يوم. القاتل يتحرك بحرية في الساحة، والقتيل عاجز عن الحركة في حفرته، والقاتل لا يعرف متى ينفذ فيه حكم الاعدام بينما القتيل مطمئن إلى نهايته.

وقد ظلّ السجن طويلاً من معالم المدينة، يؤمه الزوار في أيام محددة، فتتحول بوابته الكبيرة إلى قطب تتطلع إليه العيون بلهفة، فكان من الأمكنة القليلة التي تستقطب أعداداً لا حصر لها في الموسم الواحد. وقد أشيع أن سوره المرتفع قد سرقت أحجاره أو استعيرت من الأحجار التي كانت تغطي سطح القلعة وأطراف الخندق، الذي كان يمتلىء بالماء عندما يحيط به الأعداء الغرباء لاحتلال القلعة، فاكتسبت تلك الأحجار صلابة لا مثيل لها بين الأحجار التي شيدت بها المباني القديمة، وكان للصلابة دور في اعطاء مهابة للسجن. ويبدو أن تلك المهابة

الصارمة لم تلعب دورها في الحدّ من الجرائم أو في التفكير بارتكابها. وقد كان للأحوال العامة التي تعاقبت على المدينة من غلاء وانقلابات وتغيرات صاعقة في العادات والتقاليد، كان لها دور في تزايد وقائع الاجرام بأشكاله المختلفة، لذا كان تفكير المسؤولين في البداية ينحصر في توسيع السجن على حساب دورٍ أهلية تحيط به، إلاّ أن النسيج العمراني المتماسك من حول السجن حال دون ذلك التوسع، فاتجهت الأنظار نحو مكان آخر لسجن جديد، ولم يكن أمام المسؤولين من خيار سوى بقعة خارج المدينة يشيد فيها سجن حديث المواصفات، تواجه حاجة المدينة إلى عقاب. كما أن القذارة الناجمة عن تزايد عدد السجناء بشكل لا يوصف، كانت من الأسباب الدافعة نحو الانتقال إلى مكان آخر، فآلاف السجناء كانوا يطبخون ويأكلون ويتخلصون من فضلاتهم ويتاجرون ويمارسون صناعات وهوايات مختلفة، في رقعة باتت صغيرة. وهكذا وجد البعوض والحشرات الزاحفةوكذلك الذباب فرصة للتناسل والتكاثر بين أكوام القمامة التي يخلفها السجناء كل يوم، فانتشرت أسراب منها في فضاء الساحة والزنزانات وزحفت على الأرض جيوش لم تكف تسلية الرجال، أو النساء في جناحهن، في القضاء عليها. وقد اشتهر، وفقاً لرأي خبير مقاومة حشرية استدعي لمرة واحدة لدراسة تلك الظاهرة، اشتهر نوع من الذباب الطنان يحوم في سماء السجن، لا يشبه الذباب المألوف، وكأنما هو سليل نوع خاص يمكن تسميته بذباب السجن أو ذباب الجريمة، يقاوم أي إجراء ميكانيكي أو كيميائي للقضاء عليه. وقد قيل إن العقوبات الجسدية التي كانت تطبق أحياناً على السجناء في حال تمردهم أو خروجهم على القوانين الصارمة، لم تكن لتعادل بأي حال من الأحوال، الضيق الذي يتسبب به ذلك الذباب، ولربما الجنون الذي يقود إليه الطنين. ومن عجب، أن أول دفعة من المعاقبين بأحكام السجن المؤبد وهي تنتقل إلى مبنى السجن الجديد قد قامت بنقل بيوض ذباب السجن القديم معها، ففقست هناك لتخرج يرقاتها جائعة لأجنحة تطير بها في الفضاء من جديد.

كانت معجزةأن يحصل أحمد عبد السلام النيربي على سكن لعائلته التي تأسست حديثاً أزمة البيوت خانقة ، وتشتد يوماً بعد يوم ، بالرغم من نشاط عمراني ملحوظ في المدينة وقد ظل أحمد النيربي شهوراً طويلة يبحث عن دار للأجرة فلا يقابل إلاّ بالجملة التي باتت من المأثورات الشعبية « البيوت للبيع وليس للإيجار » ثم ابتسم له الحظ ، فكفله رئيس نقابة الغزل والنسيج عند شرطي يعمل خارج أوقات الدوام في قطاع التشييد والبناء واستثمار العقارات ، فكان له ذلك السكن بداية تاريخية

القبو الذي حصل عليه النيربي كان من الدرجة الثانية ، إذ يقع تحت القبو الأعلى باثنتي عشرة درجة مظلمة في النهار ، ويلامس الأساسات ويجاورها مباشرة ، فكان القبو ،كما صرح الشرطي ، الذي يبيع عادة الدور ولا يؤجرها ، منزلاً شرعياً وأبعد ما يكون عن خطر الزلازل أو تهديد القنابل وكان البناء ،الذي شهد منذ عام زواج النيربي من زهرة بنت البابي ، يميل قليلاً نحو الشرق ، كأنما يريد أن يستند بظهره إلى نتوء كلسي ناشز من جبل العظام ، إلاّ أن أحداً من السكان لم يشعر بأي خطر محتمل قد يترتب على ذلك الميل الواضح ، كما أن ملاحظات مهندس البلدية طويت مهملة في أوراقها ،إثر هدية مقنعة من الشرطي صاحب الملك وهكذا كان القبو الذي حظي به النيربي ، فيما يطل على

منور ضيق متطاول موازٍ لسفح الجبل ، المكان الذي شهد حب العروسين . وقد مرت فترة العسل دون أن يشعر أي منهما بطعم الرطوبة الكلسية ، التي كانت تتمازج في أيام زيارة الأموات برائحة (السنبوسك) الذي يوزع عادة على أرواح الساكنين في جوف الجبل بلا حراك

لقد اقتنع النيربي بما وقر في ذهنه أن بيتاً كهذا ، وإن كان الهواء لا يمر عبره بانتظام ، بارد في الصيف ودافىء في الشتاء ،وأن الحب ليس بحاجة الى مساحة كبيرة ،فالجسدان يلتصقان بقوة إذا كانت الدار صغيرة ،والقلوب المحبة أفسح من اي قصر إلا أنه مع تلك القناعة لم يجرؤ ذات يوم على التغزل بعش الحب هذا أمام زهرة زوجه وكان القبو واضح الملامح ،ففيه غرفة مستطيلة كتابوت عظيم الشأن ، ومطبخ يتكشف طرف منه على مرحاض سيء التصريف ، وطرف آخر على حمام له جرن من البلاستيك سرعان ما يطفح الماء منه بعد لحظات من فتح الحنفية ،التي تهرب منها نقط متتابعة لها ايقاع رتيب وكانت الفسحة الصغيرة للقبو هي قاع المنور ،تخرج إليها زهرة إذا أرادت أن ترى وجه ربها ،فتتطلع الى السماء البعيدة عبر بئر عميق ، فلا تلبث أن تعود إلى الداخل لتشغل نفسها بتنظيف البلاط المنخور وتمسح الجدران التي تنمو عليها باستمرار ذارت بيض وكأنها قطن مندوف يخرج من شقوق خفية في الطلاء الخشن

في تلك الليلة ، بل في نهاية تلك الليلة الطويلة ، ومع بداية الفجر الذي انتظرته زهرة متقلبة على جمر أفكارٍ وأحلامٍ لا حصر لها ،قامت الزوجة كعادتها إيذاناً ببداية يوم آخر كان عليها أن توقظ زوجها فالمسافة الى المعمل كبيرة والمواصلات صعبة بحثت عن الشاي فلم تجد أثراً له ،كذلك لم يكن هناك في الوعاء البلاستيكي المفلطح سوى ملعقة واحدة من السكر ، وقد تأكدت من وجود نصف رغيف كان قد لف بالقماش لإبعاد الصراصير ، التي كانت تتجول بحرية في ارجاء الدار وكأنها تدفع أجراً سخياً لاستيطانها وإذ تفشل محاولتها الأولى في ايقاظ زوجها ، تعود الى الخزانة لتجد أربع زيتونات ما زالت تحتفظ بآثار الزيت عليها ، فتعض على شفتها حائرة تتردد في القيام بمحاولة ثانية يصحو فيها أحمد

توقفت زهرة لحظة أمام المرآة التي احتفظت بشرخها منذ أول يوم أنزل فيه جهاز العرس إلى باطن العمارة كانت اللحظة طويلة ، والشرخ يقسمها إلى نصفين غير متساويين منذ قليل كانت تتقلب على الفراش تتابع أحلامها الوحيدة على صفحة السقف الواطئة المعتمة ، أو تحت المخدة التي تغطي بها رأسها لم يكن الحرّ هو السبب الوحيد في أرق زهرة ، كما أن صوت الشخير الذي ارتفع في جو الغرفة يرسله تعب أحمد النيربي بتواتر مثير للأعصاب ، لم يكن أيضاً الوحدة في معظم الليالي ، بعد أن تغير عشق الزوج المتأجج في الشهور الأولى ليصبح بروداً وانهاكاً واستغراقاً في نوم ثقيل، كانت هي كل شيء ، وهي التي سرقت الغفوة اللذيذة التي كانت تمسح عينيها في شهور الحب الأولى

أمام المرآة التي خبا لمعانها بسرعة غير متوقعة ، ويبدو أن الرطوبة كانت عدوة لكل لمعان ، ظلت زهرة تعيش تلك اللحظة الطويلة نظرت الى نفسها جيداً ، واستمر النظر باهتمام ، فوجدت أنها تكشف فجأة عن صدرها بحركة واحدة من يديها فيصبح كل شيء مثيراً ، حتى انها اشتهت نفسها ، فألصقت ثدييها المملتئين رغبة ، بسطح المرآة البارد وتأوهت ، ثم تنهدت ، ثم تمتمت:

« بستان شهي الثمار ، الاّ أن البستاني »

وأقفلت فمها خوف ان يسمعها النائم

بعد قليل ، كانت المرآة واسعة كبريّة من سهوب أليفة ، ليس لها حدود وكانت زهرة عارية تماماً ، فبدت في عتمة القبو كجنية زائرة تلاحقت أنفاسها بتشهٍ صارخ ، لكن الحقد في أعماقها كانت تُسمع له أصوات فقاعات متدافعة في وعاء ضيق مغلق بات الحقد على كل شيء كطفح الجدري ينتشر على الجلد الناعم وثنيات الجسد المحمر هتفت:

« من فقر إلى فقر يا لحظك يا زهرة »

وجعلت تحدق في الجسد الذي تحبه كانت كفها تمر على الزجاج بحنان وأناة فترتعش الحلمة التي لامستها أو الساق الذي مرت عليه ثمانية عشر عاماً من الحيوية المختبئة تحت ثوب لم يتجدد . لحظة طويلة طويلة من الاستغراق في أسرار

فتنة آسرة ، ثم صحت من حلم جديد معذب

موعد الاستيقاظ قد حان ، والرجل يجب أن ينهض من فراشه ، يغسل رأسه المثقلة بتعب لا يتوقف ، يتناول إفطاره ويسعى الى العمل

ـ « أي عمل وأي دخل ! »

ـ هكذا قالت لنفسها وهي تهز زوجها من كتفه

ـ « يقول أن الأسعار ترتفع والدخل ثابت »

ـ وظلت تهزه ، لكن عقلها مشغول

ـ « وما دخلي أنا ؟ من فقر إلى فقر أهذا هو مصيرك يا زهرة يا أحلى بنات التلة السودة؟ »

وهي تتثاءب متكسرة ، ويدها تتابع هزّ الرجل ، أطلّت عليها صورة أهلها . العائلة التي انحشرت في ثقب من ثقوب التلة السوداء ولم يكن الثقب بأفضل حالاً من القبو ،لكن الوعد كان هو الخلاص . خاطبت أباها :

ـ « ماذا فعلتم بي؟ »

ـ ثم تطلعت الى أمها ، بعتب، فسمعتها تتمتم بتعب

ـ « هو النصيب يا زهرة »

جاءهم النيربي متودداً كان خجولاً فأوحت كلماته القليلة بالصدق في المرة الثانية وافق الجميع عليه ، فهو صاحب دخل ثابت ، وكان والدها صطوف البابي يحلم بأن يكون مثله فقرأ الفاتحة مسرعاً وكان أحمد عبد السلام النيربي في الثلاثين ، لكن طيب ملامحه اظهره أكثر شباباً . صرح لهم بانه مرشح في القريب العاجل كي يكون رئيس صالة الغزل بعد أن نال رضى مديره مؤخراً وقال الخطيب أنه مستعد لشراء خزانة بأربعة أبواب وفيها مرآة على طول الباب . وأهل التلة السوداء لم يعرفوا من قبل خزانة بأي باب مرآة ورفوف في الداخل لحفظ الملابس الداخلية الرقيقة وأثواب النوم الشفافة وقال أن القطن الابيض سيكون حشو الفرش التي ستملأ الدار بالدفء وسيكون للعروس دار مستقلة عن أهله ، فلا يشاركها فيها أحد ،وفي الدار التي يبحث عنها هناك حمام تجري فيه المياه

الساخنة تجلس فيه زهرة لتحشو شعرها الناعم ببيلون الورد ثم تغتسل بصابون الغار الأصلي ؛ ووعد الخطيب بمئزر مقصب تلف به جسدها يوم تريد أن تذهب إلى حمام السوق للمشاركة في مناسبة كالصبحية أو السبوع

هزت النائم نادته مرتين ، لكنه لم يتحرك قم يا أحمد فقد طلع الفجر وستتأخر عن العمل ، لكن الرجل أعطاها ظهره فظل مستغرقاً في نومه كطفل مدلل كان الهزال قد لحق بالنيربي ، فهتفت أمه الكفيفة وهي تتحسسه قطعة قطعة ذات مرة ، وهو يزورها كالعادة خطفاً ، إن امرأته لا ترحمه ، لكنه لم يعلق على لمزها بكلمة لأنه يعرف سبب هزاله ، فهو يعمل بمشقة يصل إلى المعمل في السادسة صباحاً وينتهي منه في الثالثة بعد الظهر ، ليلتحق بالمصبغة التي يملكها الحاج صبحي هناك مع الروائح النفاذة المهلكة حتى الثامنة مساء وعندما يقبض على الراتبين بأصابع متوترة ، يكتشف شهراً إثر شهر أن ما يكسبه من الجهتين لا يكفي أحياناً لطعام مشبع ، فكيف بإيجار الدار وفاتورة الكهرباء والماء وأقساط غرفة النوم والبوتاغاز التي ما زالت سارية المفعول ، ومساعدة أهله

- « الغلاء الغلاء يا زهرة! »

- فهتفت الصبية ، وقد افلت من يدها زمام الكلام الحلو

- « وما دخلي أنا بالغلاء؟ »

- وتردد شكواها وهي تهز النائم من جديد

كانت ذراع النائم متمسكة بالمخدة ، فتأملت زوجها بغضب ، وتمنت في تلك اللحظة أن يختنق كانت حقاً تريده أن يختنق بأنفاسه

وعندما سقط حملها الأول بعد ثلاثة شهور من الزواج ، قالت (الداية) أن الدرج مضرّ بالحوامل البكريات ، ثم إن الممرض العجوز الذي يعمل في المستوصف القريب أقنعها بفكرة اختلاف دمها عن دم النيربي هتفت زهرة وهي تضغط على المخدة على رأس زوجها:

- « وما دخلي أنا بالغلاء؟ دمي غير دمك »

تخيلت زهرة نفسها ، في تلك اللحظات المتسارعة ، مستلقية على سرير

نحاس أصفر بالقرب من نافذة عريضة تتدفق منها شمس دافئة تتقلب على السرير فيسمع للسرير طقطقة تثير الخدر ثمة رجل تجهل معالم وجهه يقترب من السرير أنامل الرجل دقيقة تلبسها خلخالاً ذهبياً وينحني فمه الشهواني من أصابع قدمها يدغدغها بأنفاس حارقة كشفت زهرة عن ساقيها تتأملها ،وصرخت بصوت مكتوم كلمات مبهمة ،وعادت من جديد إلى المخدة التي غطت رأس النائم ،وكانت تفكر

كان التلفزيون الوحيد في العمارة ، يجلس بخيلاء في صالون أم الخير ، مدرسة عائدة من غربة عمل طويلة في الامارات وكان ذلك التلفزيون ، الذي يبدو كضيف عظيم الشأن ، النافذة الوحيدة التي أطلت منها زهرة على العالم حب صريح وسيارات سريعة وغرف نوم وردية ورجال يتكلمون بلغة ساحرة عن مفاتن المرأة طالما قالت لنفسها:

ـ « أنا أجمل من كل نساء التلفزيون »

وكان رصاص ينطلق من كل اتجاه فلا تتناثر الشاشة دم يسيل أحمر كالكرز رجال يعذبون ويتعذبون تهدجت أنفاس زهرة وهي تنطلق خلف ذراعيها المتجهتين نحو المخدة التي ما زالت تغطي الرأس

ـ « على الفقر أن يموت »

ـ هذا النيربي الذي

ـ هي تركض بجنون خلف الذراعين المتشنجتين كسهمين قاتلين

ـ هي تضغط المخدة على الوجه الذي خانها بوعود لم تتحقق



خرجت الشمس عليه وهو ساهم يخترق بعينيه طريق المعامل المزدحم كانت إبر النور تتعاقب على وخز البؤبؤين بالألم ، بينما ذاكرته وهو مغمض تستعرض المعامل والمصانع المتعاقبة على طرفي الطريق محالج القطن وشركات الغزل ، ومعمل المعكرونة ، كان ايقاع الأمكنة المتواترة كوخز الابر .

كان قد احتل مقعداً في الباص بالقرب من النافذة ، وبالرغم من تأخره ذلك اليوم في النوم ، فقد سمحت له خبرته في احتلال مكان يريح عليه جسده المتعب ، فالمسافة بعيدة ، وهو سيكون آخر النازلين من الباص الذي كان يزحف على الاسفلت زحفاً ، لكثرة الركاب الذين حشروا فيه قعوداً ووقوفاً ومتسلقين على الباب تلك الحكاية اليومية عن الزحام ، تدفعه الى التفكير المستمر في حاله أين كان ، أين هو الآن استمر في الإغماض بعد أن قست عليه الشمس

تساءل احمد عبد السلام النيربي ، وهو يتابع شريط المعامل المتواصل :

ـ « ما ذنب زهرة أن تبقى اليوم بلا افطار »

ثم قال لنفسه وقد ضايقه جليسه على المقعد يدخن بالرغم من تحريم التدخين في الباص: « زهرة ذكية ، وستذهب حتماً الى الحاج علوان السمان ، فيعطيها ما تريد من سكر وشاي وخبز قد تشتهي نفسها الحلاوة الطحينية والزيتون الأسود لن يبخل عليها الحاج بشيء »

كان الحب يتداخل مع حرقة العينين يسببها ضوء الشمس الساطع

كان النيربي في ذلك الصباح ، وعلى عادته ، قد أحس بثقل غريب في رأسه وهو يحاول أن يستيقظ فلا يستطيع لقد سمع كلاماً عن الذين يحششون أو يشربون (ألفية) من العرق فيعجزون عن استذكار ما حدث لهم في الليلة الماضية ،ولولا خوفه من غضب الولي الذي يرقد منذ مئات السنين في عطفة (القطانة) الأولى ،وهو الذي استجاب لدعائه يوم قُبِلَ عاملاً في شركة الغزل والنسيج ، لولا ذلك الخوف ، لجرّب الحشيش والعرق الآن يتذكر ، بل إن صورة الحلم باتت واضحة ، فقد كانت جمجمته تتكسر كإناء من البلور، لا ، فقد كان رأسه يهرس تحت ثقل شاهدة قبر عارية من أية كتابة الشاهدة الحجرية تميل بقوة لتدفن رأسه تحت تراب جاف تسبب ذراته الاختناق ودفعته صحوة الموت الى اليقظة المذعورة ، ففتح عينيه فإذا بالحلوة تجلس بقربه يا الهي ما أجمل أن يكون الموت خدعة يختبيء خلف ستارة من وجه صبوح كوجه زهرة الجميل قالت له في تلك اللحظة ، ولا بد أن ارتعاش صوتها المتكسر كان رغبة مبكرة في عناق لا يجد له وقتاً:

ـ « لقد تأخرت هيا »

ـ فهتف بطمأنينة بعد أن زال عنه خوف الانسحاق تحت الشاهدة الحجرية:

ـ « صباح الخير يا زهرة »

أحبها منذ تلك اللحظة التي كان يمر فيها بالقرب من التلة السوداء لزيارة زميل في المعمل ، فشاهدها تنشر الغسيل أمام باب الكهف طفلة تتعارك في جسدها أنوثة أمرأة راقصة مع براءة خروف يتواثب . كانت كالقطة تتثنى على حبل الغسيل ، فتمنى أن تكون بقربه دوماً يمسح بكفه على جلدها ، ويظلّ يداعبها حتى يشيخ وقال لنفسه وهو يستمع الى موافقة أهلها على الزواج :

ـ « سأغرق الصبية بالسعادة ، وإني أقسم على ذلك »

وها هي نهاية الرحلة نزل من الباص كالتائه ، ولكنه أحس بالجوع وهو يدخل من بوابة المعمل قال له المراقب عند الباب ما بين سخرية ومداعبة:

ـ « النيربي يتأخر خمس دقائق ، لا بد أنها علائم الساعة أو اغراء الزوجات الدلوعات »

فلم يعلق على الكلام ، وتوجه نحو الصالة كان في نيته اليوم أن يفعل شيئاً لم يكن يدرك ما هو ، إلا أنه في الأحوال كلها اتخذ قراراً بأن يأخذ اجازة من المصبغة ويعود مبكراً إلى الدار كان يريد أن يضع زهرة في حضنه ويبكي ، أن يطعمها بيديه يعوضها عن أيام تتراكض بلا معنى أو حنان أو تقارب

سيمرّ بسمّان الحارة ، وسيأخذ من دكانه العامرة كل شيء تحبه زهرة ، وليتراكم الحساب مهما شاء له ، فأول الشهر قريب وسيقبض راتبه من الشركة ومن المصبغة ، ويضع كل ما يكسب أمام الحاج علوان وسيراهن على ابتسامته تسيل على اللحية الناعمة كخيطين من الدبس يخضب الشعر الأحمر وفي بحر الضجيج الذي ارتفعت به عقيرة الآلات تهز جدران الصالة التي بدت له فجأة كزنزانة انتشرت فيها آلات تعذيب ، غرق النيربي مستسلماً

اثنتا عشرة سنة من العمل هنا مرت ، ولم يكن قد سمع ضجيجاً كما يسمع الآن المغازل تدور على نفسها بآلية خاطفة ، وهو يدور حول واقعه اليومي كبغل الطاحون المغازل تحول حبال القطن السميك الى خيوط تملأ الكونات بنظام عجيب من الاتقان ، وهو لا يستطيع أن يرتب لزهرة حلماً واحداً كان قد وعدها به أو وعد نفسه كلما بنى عشاً لأمنية صغيرةجاء فحش الغلاء وفتكَ بالعش فكر النيربي إن كان يستطيع أن يحصل على عمل ثالث ،ولكنه ما لبث أن سخر من أفكاره فيومه بات مكتظاً بالتعب وبالشوق الى لحظات دافئة ، كما كانت أيام الزواج الأولى تخيل التعب اليومي وحشاً يهدده في كل لحظة

تدور المغازل حول نفسها ، ويتذكر . الحديقة العامة فسحة سكينة تمتد عبر سطوح الماء والمرج الأخضر وظلال أشجار شاخت وما زالت مزهرة كانت الأزهار تتراقص امام العروسين وقد احتلا مقعداً نائياً على ممر جانبي ، وتلاصقا كمخدتين اتكأت عليهما السعادة كانا يأكلان من عرنوس ذرة مشوية واحد ،

فيتقارب خداهما ويتبادلان قلوب بزر عباد الشمس ، يعطيها قلباً فترد له قلباً يقول لها هامساً « أتمنى أن تأتينا بولد » ، فتتغانج بصوت مبحوح « الا تريد بنتاً مثلي » ، فيدعو الله في سره أن يرزق بدستة من الأولاد ، نصفها له والآخر نسخة منها تهتف زهرة بدلع « أريد عقابية » فيقول إن موسمها القصير انتهى ، وبعدها ببيت المستقبل فيه حديقة يزرع فيها شجرة لوز من أجلها كان يحلم بزهرة تقطف اللوز الأخضر فيسمع لصوت تكسره بين أسنانها موسيقا تثير رغبته في تقبيل الشفتين وتهب ريح خفيفة ، فيغطي كتفها بذراعه فتهتف محذرة من عيون الناس فيقول لها ما دمت معي فلن أخاف الناس ولا الأشباح ولا المستقبل . وكانت الحديقة العامة التي استضافتهما مرتين لا غير ، حلماً يداعب خياله ، ولكن الحياة تزداد صعوبة . وكان النيربي كلما وضع خطة محكمة لاصطحاب زهرة فشلت تلك الخطة ، فالأعمال تطول واليوم يقصر قال لنفسه :

ـ « لا بد أن الأحوال ستتغير ، ولا يمكن أن تعصره هكذا »

وهكذا كان يحسّ بعظامه تنسحق تحت ضغط الأيام التي تزداد شراسة يوماً فيوماً ، بل لحظة تلو أخرى

تساءل النيربي وهو يعيد اللُحمة إلى خيط انقطع :

ـ « من المسؤول؟ »

ـ ولم يسمع تحية رفيق له يمرّ قربه ، بل ظلّ يتساءل بصوت خفيض ضاع بين هدير المغازل :

ـ « أهو المسؤول؟ »

ثم قال لنفسه وما دخل مدير الشركة ، أليس موظفاً مثلي ، لكنه ما لبث أن استعاد صورة تنقله اليومي بين الدار والمنشية مركز الباصات ، وبين ذلك المركز والمعمل فهل يقضي المدير ساعة للذهاب وأخرى للإياب. وتمتم كالمحموم :

ـ « هو يجلس في مكتبه المكيف يوقع الأوراق ، أما أنت ياابن عبد السلام النيربي فتنام تحت سطح الأرض بأكثر من عشرة أمتار »

ـ صاح ، فلم يسمعه أحد:

ـ « من المسؤول عن كل هذا! من المسؤول عن ضياع الأيام والعمر في الهرولة بين الشمال والجنوب والقبو ».

ـ صرخ النبربي متأوهاً ، فضاعت صرخته في بحر الضجيج

الحاج علوان هو تماماً ما أريد أن أتوصل إليه الحاج علوان! هل يمكن أن يكون المسؤول؟ وتحول التساؤل الى حساسية في الدم الذي يتسارع جريانه

وكانت الشمس صارخة قاسية تعمي الأبصار ، بينما النبربي في طريق العودة ، وكان يفكر في رجل اسمه الحاج علوان كان يقلّب التفكير في علاقته بصاحب اللحية الممشطة بإتقان هتف بصوت يكاد يكون مسموعاً:

ـ « ألا يشاركني في دخلي؟ »

ـ ثم تمتم ، فأثار فضول جليسه على المقعد في الباص:

ـ « بل هو يأخذ معظم دخلي من المصنع ومن المصبغة »

هو المسؤول ، أعلم أنه هو المسؤول عن كل شيء وكانت خيوط الشمس المائلة تخترق بشرة وجهه وبؤبؤي عينيه قال:

ـ « هو الذي يخترع حكاية الأسعار المرتفعة يوماً بعد يوم »

ماذا حدث يا حاج علوان ، فالبندورة كثيرة في هذا الموسم؟ فيصرّح الحاج علوان بأن الموسم ضعيف وشح المياه أثّر على الانتاج الخضار والفواكه ، الزيت النباتي والصابون ، المعلبات ، الرز والسكر والشاي وكذلك الخبز حتى الخبز كان يخضع عند الحاج علوان لأسعار العملة الأجنبية

ـ « ألم تسمع يا نبربي بأخبار الدولار؟ »

هكذا يقول الحاج علوان ، فينظر النبربي إليه ببلاهة قالت زهرة مرة لم لا تدفع له مباشرة بل لماذا لا تشتري من غيره؟ فينظر إليها باستغراب ولا يتكلم ، فهو يعلم أن ذلك مستحيل آخر مرة دخلت فيها الفاكهة بيته:

كانت منذ شهر وأما المعلبات فيقول عنها الحاج علوان أنها مهربة من لبنان ، فهو لا يستطيع أن يتحكم في أسعارها

ـ هتف النيربي بحرقة:

ـ « لوتقع يدي على دفة الحاج لمزقته وأرحت كل المديونين من ظلمه ».

وتجلت له فكرة طارئة . لو وقع كيس من الرز المخبأ في مستودع الدكان الداخلي ، ووقع على الحاج علوان! أليست فكرة وجيهة ؟ دفعة صغيرة ويسقط الشوال القاتل على الحاج علوان والآن كيف التسلل الى المستودع الخفي الذي لا يدخله سوى الحاج وصبيه ؟

وكانت حبات العرق التي انسلت من جبين النيربي الى رقبته ، التي انتفخت عروقها ، قد طوقته كأنما تريد اختناقه . قال لنفسه :

ـ « أزف الوقت ليضع حداً لجشع سمان الحارة البشع »

وظلت الأفكار تتعاظم والنيربي ينتقل إلى الخط الثاني للباص متوجهاً الى جبل المظام وكانت الرحلة بطيئة ، بينما النيربي الذي كان واقفاً في مؤخرة الباص يتمايل مع الواقفين ،يفكر في الحاج علوان الذي ملأ شحم جسده الصاية الصفراء ، وقد تدلت من ربطة الشال العجمي التي تلفها ، شرابة المفاتيح . مفتاح للخزنة الحديدية وآخر لباب المستودع وثالث للسحّابة التي يجمع فيها الأوراق المالية والنقود المعدنية ، ومفتاح لداره تحت القلعة يقفل به على حريمه الثلاث قال النيربي وقد مال على شاب بقربه بسبب التفاف الباص السريع :

ـ « لا أستطيع وأنا أعمل كالبغل أربع عشرة ساعة أن أعيل زوجة واحدة ».

وكان الجو خانقاً في الباص ، والعرق يتصبب من الجباه ، فلا يستطيع أن يمسح هو عرقه لتعلق ذراعيه الاثنين بالقضيب الحديدي كانت الملوحة تصل الى فمه ، فيحس بالمرارة كان النيربي قد اشتعل بالحقد والنقمة

ـ مساء الخير.

لكن الحاج علوان لم ينظر الى النيربي كان منفعلاً بشراسة في جداله مع

عجوز تصرخ احتجاجاً على البيض الفاسد الذي اشترته مساء البارحة

ـ « عشر بيضات يا ظالم، ست فيها فاسدات! »

ففقد الحاج صوابه، وكانت لحيته ترتعش، والزبد يملأ شدقيه

ـ « ويشرّهم بعذابٍ عظيم ».

ومسح وجهه تبركاً، وعاد من جديد ليصب اللعنات على الشمطاء التي تتهم الناس زوراً، ويقفز في مكانه منتفخاً كديك رومي يستعد للصراع

ـ مساء الخير يا حاج علوان.

فلا يرد الحاج التحية، بينما العجوز تخرج من وقارها، فتكشف الغطاء الأسود عن شعرها المحنّى، لتشد خصلة منه وتهتف بحق حرمة هذا الرأس أن يجعل أيام علوان فاسدة كبيضهِ، ثم تمضي متراجعة بغضب وهي تردد:

ـ « حجتك باطلة يا علوان يا أبو بيض فاسد! الحج ليس لامثالك »

ويغلق الحاج علوان دفتر اليومية القلاّب، وهو يُبَربِرُ بأدعية ولعنات على رؤوس المستدينين والمفترين والمعتدين على مالِهِ الحلال.

ـ مساء الخير،

فانقلبت سحنة الحاج وهو يصرخ:

ـ « نعم يا سيدي، فأنا وليس الصبي هو الذي رفض أن يعطي حرمتك ماطلبت »

فنظر النيربي باستغراب، فتابع الحاج علوان وكان صوته عالياً كمناد في المحكمة:

ـ « نعم، رفضت أن أعطيها ما طلبت. جاءتني وطلبت فرفضت. هل تريد أن تعرف لماذا؟ لأن حسابك كبير، ودفتري شاهد. هل تريد أن ترى بأم عينيك مفردات الديون التي ترتبت عليك؟ »

ولبث النيربي صامتاً كطنجرة الضغط، لا يجد متنفساً لنقمته سوى بريق عينين تضيقان بالتوقد القاتل.

ـ « هه ماذا قلت يا جار؟ »

بعد لحظات أكمل الحاج علوان بعد أن أجاب باقتضاب نزق على مكالمة هاتفية:

ـ « لست جمعية خيرية، فأنا رجل أتعب مثلي مثلك »

كانت عينا النيربي تجوسان في أرجاء الدكان، تتنقلان بين الصناديق والأكياس، وتسلقان الأرفف التي تكدست عليها العلب والآنية الزجاجية وعلب البلاستيك المختلفة الألوان. نظراته اتسمت بالحسرة وهي تمرّ على ثمار البرتقال الذي لم يذقه مع زهرة منذ شهور، وكانت رائحة السمن تأتي من عتمة المستودع، الذي يستحيل الدخول إليه، لتخترق خياشيمه فتهيج أنفاسه التي تسارعت وهو يختلس النظر إلى دفتر اليومية الجاثم قرب الميزان، ثم ينتقل بعينيه الباحثتين إلى الأوزان الحديدية يعدها متفحصاً. ذات ٢الخمسة كيلو غرام، والأخرى التي تزن كيلو غراماً. قال الحاج علوان وقد صفا مزاجه:

ـ « لا تبدو على طبيعتك اليوم يا نيربي »

ثم ممازحاً بتسامح مفاجىء:

ـ « لا بأس، فأول الشهر قريب، وستسدد حسابك »

خمسة كيلو غرامات من الحديد ترتفع في الهواء لتسقط على رأس الحاج علوان. تنفلع الجمجمة ويسيل الدم المخاطي على الجبين ليغطي زبيبة الصلاة التي يقسم النيربي على أنها مفتعلة. يسمع الصراخ في كل مكان، وتردده شواهد قبور جبل العظام، وتتطاير من العينين المفزوعتين الهوام والحشرات، التي كانت تأكل لحم الناس وتسمم حياتهم. فكان النيربي في تلك اللحظات يغوص في بحيرة من الراحة والطمأنينة، بينما الدم يسيل في خط متدفق، يخرج من الدكان ليختلط بتراب الشارع

لم يتوقف الحمار البطيء الخطوات عند اشارة المرور الحمراء. كان الضوء قد انتقل بسرعة من الأخضر إلى الأحمر فتوقفت عند المسامير كل العربات، باستثناء الحمار الذي مضى متثاقلاً غير آبه باختراق النظام. كان صاحب العربة يضرب حماره العجوز بقسوة مفتعلة كي يتجاوز الساحة المستديرة، لكن الحيوان حافظ على وتيرة حوافره على الاسفلت الناعم، فأثار مشهده حفيظة سائقي السيارات القادمة من الطرف الآخر، فجعلوا يحذرون العربة الخشبية بالأنوار، ثم ما لبث سائق نزق أن أطلق لزموره العنان مخالفاً الأوامر ومعلناً عن سخطه على عربة تحمل آثار قرن مضى وحمار تعس.

كان صاحب العربة الخشبية، الذي تعوّد أن يعود مع الحاج علوان مساء كل يوم محملاً بتموين الدار الكبيرة، يحمل هذا اليوم صناديق استثنائية شغلت كل زاوية في صندوق العربة. وكعادته، كان الحاج علوان يجلس عن يمين السائق يشكو له أحوال الزمان، وخلال سنوات ثلاث حفظ السائق، وهو قروي هاجر إلى المدينة فعلمه الضجيج حسن الاستماع، كل الهموم التي تحدث عنها زبونه الحاج. سوء الأحوال، غدر الأصدقاء، العمل لوجه الله دون رغبة في كسب أو ربح، متاعب الدار والزوجات، إلى آخر نوع من الهموم التي ينوء تحت ثقلها جبل. وعندما تصل العربة أول المنعطف المؤدي إلى الدار، يكون الحمار قد أخذ راحته في السير حول

القلعة وكأنه في نزهته المفضلة، ويكون الحاج قد أحجم عن الكلام وأرسل نحنحة الهيبة المألوفة، ومدّ يده إلى الزنار ليخرج المحفظة المطوية كحجاب ولينقد السائق أجره، فيقول هذا بتأدب لا فائدة منه إن هذه الأجرة ما عادت تكفي إطعام الحمار، فيربت الحاج كتف السائق بكفه السمينة وينقط له في كفه التي ما تزال ممدودة بالنقود، عطر الورد الذي يحتفظ بحنجوره في الشال العجمي الذي يزنره، ثم يصرخ في وجهه كالمعتاد:

- « تصبح على خير يا ابن الناس »

ثم يتوافد حشد من الأولاد الذين أنجبتهم الزوجة الأولى والثانية، فيتخاطفون الصناديق والأكياس، ولكنهم لا يتورعون عن فحص محتوياتها، بعد أن أثار الانتباه ذلك القدر الهائل من الفاكهة والمكسرات والحلويات الحلبية. ويتحول نقل التموين إلى شيء أشبه بالقافلة يراقبها الحاج علوان بإعجاب يتخلله بين حين وآخر تحذير من خطأ قد يقع فيه الأولاد الفرحون بنقل البضائع التي لم يشاهدوا مثل تنوعها من قبل، بينما السائق يسلم حمولته قطعة قطعة دون أن يثيره أي شيء. وكان الحاج يتمتم في سره أسماء المواد التي ستملأ بعد قليل مطبخه وقسماً كبيراً من صحن الدار. صندوق التفاح الجولدن، العنب الزيني، البرتقال اليافاوي الذي بات نادراً، الخيار ناتج البيوت البلاستيكية، دراق انطاكية، خوخ قلب العجل الذي ما زال غبار أمه عليه، أكياس الفستق الحلبي واللوز العجمي، التين المجفف والزبيب الشامي، قلب الجوز والجقملبن، علب المبرومة والبلورية وسوار الست والبقلاوة والكرابيج بالفستق. وكانت سرعة الأولاد في التحرك بين العربة وباب الدار، أضعفت الحاج المنهك في متابعة تفتيشه على كل ما حصل عليه في الأسواق استعداداً لوليمة الغد الكبرى.

لم يرث الحاج علوان أباً أو قريباً، وابتدأ حياته من الصفر حمّالاً في الأسواق، إلاّ أن عناده ومعرفته بأحوال السوق التي تعلمها في فتوته الأولى، قادتاه إلى شيء مما كان يحلم به وهو يراقب كبار التُجار. واستطاع بماله الحر أن يشتري عقاراً قديماً يشرف على سفح القلعة الشرقي، فكانت داره على الغربي محطّ أنظار

الآخرين. وعندما قرر أن يتزوج للمرة الثانية حفاظاً على صحته، وكان قد ابتلي بأبي صفار وشفي منه فبات بحاجة إلى تجديد خلاياه، ضمّ إلى البيت القديم العقار المجاور فهدم السور الفاصل بينهما، وهكذا أصبحت دار الحاج علوان لا تقل اتساعاً عن السراي التي سكنها ذات يوم حاكم حلب في الطرف الآخر من القلعة، بل فاقتها بالزخارف والنقوش التي أضيفت على سقوفها وجدرانها وأبوابها ومدخلها المطل على الحارة. وكان الحاج كلما سمع في مجالسه أن الزخارف دليل القوة والثراء، استدعى (النقاشين لإضافة شيء مما يختارونه وفقاً لأذواقهم، فتحولت داره إلى معرض للتزيينات المتنافرة وانتقلت العدوى إلى الزوجات اللواتي تخصصت كل منهن بإيوان مرتفع يتصل بالحمام وبغرف ملحقة بالأولاد، وكانت هناك صالة كبرى للقاء الضيوف ولاجتماع شمْل الزوجات، يجلس وسطهن الحاج مستمتعاً بحريمه ومستمعاً إلى شكاويهن التي لاتنقطع.

عندما كان يجلس في العلية ينفث دخان نارجيلته عالياً كمن يحاول أن يدفع بالدخان فوق مستوى القلعة التي تطل عليه، كان يحادث نفسه دوماً سراً أو بصوت مرتفع إذ يكون وحيداً في الخلوة المفضلة لديه مساء كل يوم. حتى في أيام البرد كان يتدثر بالفَرْوة ويجلس مع النارجيلة التي لا ينافس رشاقتها سوى الزوجة الثالثة، وتختلط مسامرته الذاتية بالرعشة التي يتسبب بها البرد الجاف. كان يستعرض دوماً شريط حياته، فيقول «لقد حققت ما أريد» وفي تلك الأمسية ناجى نفسه بأسى «هل حقاً نلت كل ما أريد؟».

اليوم. لم يكن اليوم مريحاً في خاتمته، فقد لمح في عيني واحد من زبائنه التعساء طيف شر لم يطمئن إليه. نظرات ذلك النيربي تسقط عليه وكأنها أوزان حديدية تهشم الرأس. نفث الدخان بقلق خفيف، ولكنه بعد لحظات جعل يفكر في حاله هو، ثم ما لبث أن حصر أفكاره كلها في الغد. كانت الترتيبات من أجل الوليمة الموعودة تشغل باله منذ أيام، بل منذ أسابيع حين حظي بموافقة الضيوف عليها. لابد أنه حقق نصراً يضاف إلى انتصاراته السابقة. ولابد أن الذي يأكل صدره في تلك اللحظات هو ما يمكن أن يحدث له مع الرجال الثلاثة الذين

سيكونون ضيوف المائدة العامرة، والتي حاول جهده أن تكون حديث نزلاء الدار زمناً طويلاً.

سرّه أن جمرةً جديدة قد وضعت على رأس النارجيلة، ولابد أن سرّ ارتياحه كان بسبب أنامل زوجته الثالثة التي أمسكت بالملقاط كما تمسك بثديه تداعبه فوضعت الجمرة بخفة واستدارت حول نفسها. كانت ما تزال الأحب إلى قلبه، وعندما لفّت حوله، فلعب الهواء بثوبها الساتان الذي يقارب احمراره لون جسدها الناعم، تلمظ كجائع لم يدخل جوفه لحم منذ زمن. كان جالساً على مقعد القش الذي ما زال يحتفظ به قطعة وحيدة ورثه عن أبيه الذي مات عليه فقيراً، فتركه شاهداً على نجاحاته في التخلص من الماضي البغيض، ونظر إلى الصبية المتدللة بشهوانية، لكنه عاد إلى أفكاره المضطربة. بعد قليل كانت رائحتها تنفذ إلى مسامه، فسمح لها أن تقترب منه، بالرغم من أن دورها لم يكن الليلة، وهمس في أذنها أنه بعد أن يفرغ من الزوجة الأولى سيقوم بزيارتها مع الفجر.

كان الحاج علوان عادلاً مع حريمه، ولكنه لم يتخلّ لحظة عن مكره ودهائه في الحصول على ما يشتهي مع احتفاظه بميزان العدل. وهكذا استفاد من خبرة معاون الصيدلي زميل الطفولة والشقاء، فحصل على الحبوب المنومة منه بانتظام وأتقن استخدامها يعطيها حين الحاجة لزوجتيه القديمتين، فيسلم من مراقبتهما الحسودة وهو يتسلل إلى مخدع الثالثة التي أحبها لسنواتها العشرين ولخبرتها في الحب الذي لم يسمع عن مثله من قبل في مجالسه أو في كتابه المفضل(رجوع الشيخ إلى صباه).

وكان في تلك اللحظات يفكر في تلك الحبوب التي ترسل المرء إلى نوم عميق، فكيف به إذا ما تضاعف عددها؟

- « أليست خمسة منها تكفي للراحة الأبدية؟ »

- وتخيل مأدبة الغد يتصدرها ذلك الرجل المهيب. الضيف العظيم، ألا تكفيه خمس منها   بل لتكن أكثر

وفي اليوم التالي، وبعد صلاة العصر، ابتدأ الأولاد في رفع حبال الكهرباء عند مدخل الدار، تتدلى منها مئات المصابيح بألوان مختلفة، فبدا المدخل أشبه بأيام

المولد النبوي أو باحتفالات العودة من الديار المقدسة. وظلت الزوجة القديمة حبيسة المطبخ تساعدها الثانية، أما الأخيرة فكانت ترش بالماء أشجار النارنج والزيزفون وأحواض الورد والبنفسج وكذلك الأصص المنتشرة في صحن الدار، وتغسل البلاط بالصابون والماء، لتعدّ بعد ذلك المائدة التي نصبت في الصدر، فتضع عليها من لمساتها السحرية ومن الأزهارالتي توزعت على المفرش الأبيض، كما يفعلون في الحفلات التي رأتها على شاشة التلفزيون الذي لا يفوتها منه دقيقة. وكان الحاج علوان قد عقد اجتماعاً هاماً قبل أيام، اعلن فيه لحريمه أن الوليمة ستكون على شرف كبير تجار سوق الهال، وهتف باحترام مشوب بالعجائبية

ـ « تصوروا أنكم سترون الجبريني شخصياً »

ـ ثم اعقب متحفظاً:

ـ « طبعاً من وراء النوافذ. وستعلمون أي رجل خطير هو »

الخضار والفواكه في المدينة، بأمره. كذلك السمن والزيت. الجبريني هو عضو مجلس ادارة غرفة التجارة منذ أن وعيت السوق. وسيكون معه تاجران، هما ايضاً مهمان، الأول من زعماء (السويقة)، أهم تاجر للبلوريات وقد زوّجه الجبريني اخته تقديراً له، والثاني من أهم تجار (المدينة) ويشرف على تجارة المكسرات من الحدود التركية وحتى حدود الشام. وصاح الحاج محذراً:

ـ « اريدهم أن يذكروا الوليمة إلى آخر العمر. واضح ! »

وكانت دماء الكبشين قد صبغت منذ أيام صحن الدار بالأحمر الذي انتقلت آثاره عبر الأكف المغمسة بالدم إلى حائطي الممر الخارجي، وتطاير ريش الدجاج والحمام المذبوح ليعلق باغصان الأشجار. وعندما أخرجت الذبائح التي احتفظ بها، من فضاء الجب البارد، اشتعلت النيران في اليوم الموعود، فظن الجيران أن حدثاً كبيراً يقوم في دار الحاج، وهو زواج رابع دون ريب.

من جديد، وصاحب الوليمة الذي توجه مبكراً إلى داره آمراً صاحب العربة أن يدور حول القلعة مرتين قبل أن يترجل وقد لمعت عيناه الصغيرتان بالمكر، من

جديد كان الحاج علوان يفكر في تأثير الحبوب المنومة إذا زادت عن حدها، ويتصورها تدخل جوف الجبريني. يقول لنفسه:

- « لا يمكن لشيء أن يقتله، فهو كالجمل، ضخم الجثة متين البنية، لم تهدّ عافيته تسع نساء تعاقب عليهن. إنه رجل لا يمكن أن يستسلم »

- الجبريني هو الأغنى، وقصره الذي يختفي وراء أسوار عالية عند مدخل المدينة الغربي لا بد ينظر بشماتة إلى دار علوان التي مازالت كأثر ضئيل يمسحه ظلّ القلعة. سيارته سوداء تهدر في الشارع فيذعر لها حصان العربة التي تعود بعلوان إلى داره.

- الجبريني هو الذي يتحكم في السوق، ورقبة علوان بيد الجبريني الذي قبل الدعوة بعد تعزز طويل.

لقد أدرك الحاج علوان مؤخراً أن غياب الجبريني عن السوق سيدفع عنه شخصياً مذلة التوسل والترجي والخضوع لسلطة الرجل.

- لماذا الغياب؟

- لنقل إنه الموت. أليس الموت حقاً؟ حبوب منومة في ابريق العيران الذي يعشقه الجبريني ويعبّ منه كالثور العطش، وتنتهي لعبة الذل. وقال الحاج لنفسه:

- « سيبارك عملي جميع من يتعامل مع الجبريني. أليس هو البعبع؟ »

- ثم بقلق حذر:

- « لن تكون جريمة، فالجبريني سيغفو ثم ينام ثم لا يستيقظ، والأعمار بيد الله؟ »

كانت الكراهية التي تسرطنت في صدر الحاج علوان، قد أخذت شكل البشاشة والترحيب والخضوع، وبينما الحاج علوان عند مدخل الحارة يرحب بالضيوف الذين تقدمهم الجبريني كقائد مظفر. وكانت رائحة اللحم والبهارات، هي التي دفعت بالجبريني كي ينطق بأول جملة بعد أن هز برأسه يرد التحية:

- « ما شاء الله، فالنعم حلّت عليك يا علوان ».

- ثم مضى في طريقه إلى الداخل وكأنه يعرف أين يضع خطواته، يتبعه علوان مرحباً

ومؤهلاً ومرسلاً أصوات الفرح بين لحظة وأخرى.

وأصبحت الكراهية أنفاساً تتداخل مع الزفير والشهيق، بينما المضيف يقود الضيوف إلى الصالون ويشير بذراعيه إلى الأرائك، ثم من جديد إلى المائدة العامرة. وهم جلوس أمام الطعام الذي يكفي لمائة جائع. كان الذباب في صندوق رأس الحاج يغلي هائجاً، ولكنه لم ينقطع، أي الحاج علوان، عن الترحيب بضيوفه الكرام الذين شرفوا الدار إلى يوم الدين. وكان الجبريني وهو يتجشأ، يكيل المديح لعلوان الذي فاجأه بالاحتفاء، وهو منذ اليوم يعلن بصوت مرتفع أنه سيخصه بالعناية، ثم شرب الكأس الرابعة من العيران البارد وهتف بنشوة.

ـ « هكذا يكون العيران يا حاج علوان ».

كان سوق الهال الجديد، قد غطى مساحة كبيرة كانت المقابر تشغلها. وهكذا اعتبر إنجازاً هاماً من أعمال البلدية التي استمر رئيسها عشر سنوات في مركزه، محققاً رقماً قياسياً في الاحتفاظ بمنصبه. وقد شيّد البناء الأساسي للسوق على بقايا مقبرة نقلت عظام موتاها إلى مقابر متفرقة تزنر المدينة من معظم أطرافها. ومع تزايد سكان المدينة، توسعت أعمال السوق وأضيفت إليه أبنية أخرى، وازدحمت ساحاته بالبضائع القادمة من الريف والمزارع التي نمت بفضل رؤوس أموال كبيرة دفع بها إلى الأرض الزراعية ممولون من كافة المهن والاتجاهات.

وكان السوق منذ الصباح الباكر يغلي ويفور، فالجبريني لم يحضر كعادته. وكانت الساعة الخامسة صباحاً هي اللحظة التي يقدم فيها موكبه من الطريق الغربي، داخلاً بوابة سوق الهال الرئيسية بمهابة تشبه مهابة رؤساء الدول. كان الجبريني القابع في سيارته لا يُرى من الآخرين بسبب الزجاج المدخن الكثيف الرماد، والذي انتشرت موضته في السنوات الأخيرة، ولكن أهل السوق يدركون أنه قد حضر دون ريب، ولهذا السبب تدب الحركة في أركان سوق الهال. واقتربت الساعة من السابعة، وتجاوزتها بقليل، فحدث هرج. كان التجار والوسطاء لا يستطيعون أن يقوموا بأي فعل أو تحديد لسعر بضاعة ما إلاّ بموافقة الجبريني، وهكذا تكدست في الساحات والممرات الصناديق والأكياس المختلفة، وبات المرور

في الممرات والساحات صعباً. وبعد قليل، بدأت الهمهمات تسري في جسد السوق، إذ لم يحدث من قبل أن تأخر الجبريني يوماً عن موعده إلا لأداء العمرة او لعمل قيل إنه يؤديه في دولة أوربية لصالح غرفة التجارة، حتى أسفاره إلى العاصمة كانت تحدث ظهراً وإلى منتصف الليل إذ يعود ليكون في السوق دون أي تأخير.

في الثامنة باتت الشائعة قوية هزت الناس، فالجبريني مريض. وبعد دقائق تمتم رجال بصوت مسموع أن أوراق النعي لن تلبث أن تغطي كل جدران سوق الهال، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله. وتساءل أحدهم «هل يمكن للجبريني أن يموت؟» وردّ عليه حمال ملتح «سيدنا محمد مات».

في الثامنة والربع، سمع هدير سيارة المرسيدس. كان صوت انعطافها عند المدخل قد اجتذب الأبصار، في الساحات ومن نوافذ المكاتب ومداخل الدكاكين والمخازن. كان المدخل مكتظاً بالعيون المشدوهة، فانفتح للسيارة السوداء ممر من النظرات التي تعلقت بها، فلم يكن أحد ليميز الفرح فيها من النقمة. وتوقفت السيارة في موقفها المظلل الذي لا يجرؤ أحد على الوقوف فيه، ونزل المرافق الذي كان يماثل معلمه طولاً وفتح الباب لينزل الجبريني منه شخصياً، إلاّ أن ما أثار الدهشة عند جميع من رأوه في تلك اللحظات هو اتكاؤه على عصا، وهو القوي الذي لا يسمح لذراع أن تمتد إليه تساعده في خروجه ودخوله أو في صعوده إلى مكتبه في الطابق الأول. كان الجبريني يقترب من السبعين لكن بنيته لم تكن توحي إلاّ بدخوله الخمسين من جديد، وفي تلك اللحظات كشفت العصا عن العمر الحقيقي لملك السوق.

عينا صقر، وكفّا دب، وذراعان طويلتان لا يقف أمام قوتهما جدار أو صف من أكياس الحمص، وشعره الذي لم يعرف الشيب لا يتأثر بأي ريح قوية تهب عليه. كان الجبريني قد استحق المهابة لقوته البدنية أيضاً. وعندما ترجل، حاول أن يبعد العصا عنه إلاّ أنه فضل أن يتكىء عليها في خطواته الأولى، لكنه ظلّ محتفظاً بتلك النظرات الآمرة فمسح الساحة المكتظة بالناس والبضائع، كمن يحاول أن يختبر ما جرى في غيابه القصير، ثم وضع قدمه على الدرجة الأولى في السلم المؤدي

إلى مكتبه. وكان موقع ادارته بمثابة القلب من البناء المتطاول الذي يشكل واجهة السوق. لم يكن الجبريني ليبدو عليه أي ارهاق أو تعب ذات يوم، ولكنه إذ يقرر حمل العصا المصنوعة من المحلب القوي، بدا أكثر وقاراً، فتهامس البعض عن علاقة الوقار بالضعف. وكانت وليمة الأمس، حيث أكل كما لم يأكل من قبل وشرب من العيران كما لم يشرب، هي التي أخرت موعد استيقاظه اليومي في الرابعة، وقال لنفسه ولأول مرة في حياته « بدأت آثار العمر تظهر عليك ».

أحس الجبريني في اللحظات الأخيرة من وليمة علوان برغبة في النوم، لكنه قاوم، فالجبريني لا تغمض له عين في أي مكان عام أو مع وجود أغراب، وقد كان النعاس من حق زوجه لا غير. وعندما عاد إلى قصره اتجه على غير عادته نحو السرير دون أن يلقي بالاً لزوجته الشابة التي كانت تنتظر بمنامتها الشفافة على المقعد الوثير الذي يحلو للجبريني أن يبدأ عليه أول خطوات الغزل. كانت علاقاته بنسوته التسع ناجحة أبداً لأنه لا يجمع اثنتين قط، وهكذا حقق نجاحاً مع المرأة لا يعادله سوى تفوقه في التجارة والسيطرة على السوق. وقد أصيبت الزوجة الأخيرة بخيبة أمل إذ رأته يتمدد على السرير بملابسه، فاقتربت منه تحاكيه لكنها وجدته يرسل شخيراً وكأن دهراً من النوم قد مرّ عليه، فاكتفت بخلع حذائه وفك أزرار القميص وجلست تتأمله بشوق، فلقد كان للرجل سحره الذي لا يقاوم.

كان ابنه البكر من الزوجة الثانية التي لم يستطع أطباء فرنسا أن يخلصوها من الأورام الخبيثة التي انتشرت في جوفها، هو الساعد الأيمن الذي يتكىء عليه في معظم أعماله، وهو عينه على كل ما يدور من حوله في السوق. كان يدربه على خلافته ويثق في أنه سيرعى إخوته غير الأشقاء، لذا فإن الجبريني كان يستكين إلى الراحة إذا ما كان الابن بجانبه. وفوجىء الجبريني ومن قبله الابن بدخول (حسيب الجسري) موظف التموين الجديد، الذي لم يمض عليه سوى أشهر قليلة من عمله، فبات وجوده يسبب الغضب للجبريني نفسه، وإن كان لم يفصح مرة عن شعوره، بل غالى في إكرام الموظف الذي حار الجميع في تمييز دهائه من البساطة التي تفصح عنها ابتسامته الوديعة. رحب الابن بالجسري، لكن الجبريني تشاغل بالحديث عبر

الهاتف وكأنه يتحدث مع مساعديه للبدء في العمل.

وهكذا عادت الحرارة إلى السوق، وتصاعدت في الأجواء أصوات المزايدات. وكان الجبريني الذي ظل يتجاهل القادم، يفكر، فمنذ الأسبوع الأول الذي كلف فيه المراقب الجديد بمهمته في سوق الهال تبين أن الموظف التمويني الشاب لا يكتفي بمراقبة الأسعار والفواتير في السوق، بل يتعدى حدود مهمته. لقد علم الجبريني عبر رجاله المبثوثين في دوائر الدولة، أن الجسري يرتبط بعلاقة ما بمراقبٍ للدخل في دائرة المالية، ثم يتبين له أن العلاقة ليس فيها براءة زمالة الجامعة، وإنما مؤامرة بينهما يعلم فيها موظف المالية اسرار الدخل الحيقيقي لتجار السوق. وجنّ جنون الجبريني الذي كان على صلة وثيقة بمدير التموين وبمن سبقه، وهكذا لم تسجل ضده شخصياً أو ضد احد من أعوانه أية شكوى أو مخالفة. وأدرك الجبريني بخبرته الطويلة أن ذلك المراقب التمويني والقادم حديثاً من الجامعة ويتمتع بحماسة مضحكة للعمل، يخبيء تحت ابتسامته الوديعة خبثاً أكيداً، لذا كانت رؤيته تسبب اختلاط الألوان في وجه الجبريني الذي لم يعرف عنه سوى الوقار والحلم وسعة الصدر التي لا حدود لها.

بعد اكتشاف مؤامرة الجسري ومراقب الدخل، امتحنت صلابة الموظف الشاب بهدية ثمينة قدمت إليه، فنظر الجسري إلى الساعة الذهبية وتساءل بطفولة:

«هل هي من الذهب الخالص؟»

«ذهب عيار ٢١»

«ولماذا هي ليست عيار ٢٢»

«لأن الذهب الخالص في المصوغات هو من عيار ٢١ وليس ٢٢»

فهتف الموظف الشاب باحتجاج رقيق:

«ولكن أحداً من أهلي لم يعرف الذهب من قبل إلاّ في خواتم الزواج»

ثم أعقب بهدوء:

«ووالدي الشرطي الشيخ رحمه الله باع ذلك الخاتم كي أستطيع شراء كتب الجامعة»

وقد خيّل للجبريني أن الشاب الذي رفض الساعة الثمينة يطمح إلى شيء اهم، فقدم إليه في اليوم التالي عقداً من اللؤلؤ قال إنه يناسب عروسه، فقلب الجسري العقد بين كفيه وقال إنه سمع من قبل باللؤلؤ ولكنه تخيله أكثر أهمية، فحبات البازلاء الخضراء إذا رصّعت جنباً إلى جنب تبدو أكثر جمالاً وحيوية، وأما الزيتون الأسود فيفوق اللؤلؤ لمعاناً.

مراقب التموين صعب المراس إذن، ولكن نظرية الجبريني أن للانسان، مهما كانت خطورته، ثمناً ما، كانت من الافكار التي لم يتخلّ عنها. وهكذا نشأت فكرة الحقد عليه. كان الجسري مثيراً للغيظ والعُجب في ابتسامته وفي أسئلته التي يتوجه بها. ذكي ومتعمق في أمور الحسابات والتجارة، وكأنه خريج جامعة أجنبية. وقد قال الجبريني لابنه كاتم الأسرار:

« يبدو هذا الشاب وكأنه عضو في عصابة أو حزب متطرف »

ثم بتصميم قاطع:

« يجب أن نضع حداً له »

وفي ذلك الصباح المتأخر من صباحات سوق الهال، كان الجسري قد أنهى مراجعته لأوراق ودفاتر، اضطر المستخدم في المكتب أن يقدمها له بإشارة خفية على الموافقة من ابن الجبريني، بينما الأب الذي تكلم طويلاً على الهاتف لم يجد بداً من إلقاء التحية على الشاب الذي هبّ واقفاً باحترام زائد يرد التحية على سيد المكان. وكان الاحترام المتبادل قاتلاً، فلمعت في رأس الجبريني الفكرة التي كان يبحث عنها. استئصال الورم قبل أن يستفحل، كان هو الفكرة التي نضجت في عقله.

استطاع الجبريني أن يبني صرحاً مشهوداً له بالقوة والثبات، وكان الصبر والعناد هو الذي بنى تاريخ الرجل. كانت متعة النجاح خطوة خطوة لا يعادلها متعة، بعد أن قضى طفولته في يتم أسود. وساعدته بنيته الجبارة على السير ليلاً عبر الجبال يقود قافلة من البغال تحمل البضائع المهربة، فكانت البداية مدخلاً إلى ثروة صغيرة سقاها التصميم لتصبح كبيرة ومثمرة. وكانت المرأة في حياته عنصر لذة لا يضاهى، إلاّ ان النجاح في تحقيق المشاريع فاق اللذة تلك. وبالرغم من دقته

البالغة في التعامل مع الآخرين، فإن أحداً ما كان يجهل قدرته على اتخاذ القرارات الحاسمة، وافتعال المواجهات التي يكسب جولاتها جميعاً دون ريب. لم يكن الجبريني شيخاً للسوق ومرجعاً لأصحابه وحسب، بل كانت كلمته قانوناً يضع حلاً لأية خصومة بين اثنين مختلفين على شيء، أو عشيرتين وصل بها الصراع إلى القتل والثأر. وللعدل يمكن الاقرار بأن المال الذي بات يتحكم فيه لم يكن هو السبب الوحيد في مهابته، بل قامته المديدة وعيناه الصاحيتان يتألق فيهما السواد نوراً آسراً، لعبت الدور المباشر في السيطرة على من حوله. وعندما همس لابنه البكر أن الصناديق الخشبية التي ارتفعت بالبندورة جداراً عالياً، يجب أن تقع بحكم المصادفة على موظف التموين أثناء مروره، لتدفن تاريخ تجسسه على السوق والحسابات تحت أنقاض الخشب، الذي بات ثقيلاً لكثرة ما تشرب من رطوبة البندورة عبر السنين. وهكذا بات قرار الجبريني الحاسم شريعة يؤمن بها الابن فلا يناقش أي حرف فيها.

كان الشاب التمويني، حديث التخرج من الجامعة، أول المتمردين على الجبريني خلال سلطته المديدة، لذا فقد كان قرار التخلص منه أمراً محتوماً. وسقوط صناديق البضائع أو أكياسها، على عابر في ساحة السوق، لم يكن بالحادثة الفريدة من نوعها، فكثيراً ما أصيب عتالون وسماسرة وأصحاب دكاكين صغار وزبائن جوالون، بكسور ورضوض أو جروح نتيجة لانزلاق كيس أو سقوط صندوق. وكانت الحوادث تسجل عند مخفر السوق على أنها قضاء وقدر، ولم يحدث أن مصاباً طالب بتعويض عن أذى لحق به، فأخلاق السوق لم تكن لتسمح بمثل هذا الأمر. وهكذا سيقدر لحادثة مماثلة تؤدي إلى الوفاة، أن تكون من قضاء السوق وقدره.

لقد تجاوز الشاب حدوده. وهو إذا ابتدأ حياته بمثل هذه الخسة التي لا تليق بأحوال السوق، فكيف به إذا بات مسؤولاً كبيراً؟

وقال الجبريني لنفسه متابعاً:

« سيكون خطراً لا يحمد عقباه »

ليرحمنا الله جميعاً، وليغفر خطايانا، وَلْيَهْدِ أجيالنا القادمة إلى سواء السبيل،

ولتكن لنا في النتائج عبرة، وليتعظ من ترك لسجيته أن تمشي على هواها وسمح للسوء ان يتغلغل في نفسه.

وهكذا كانت مسوغات الحكم الذي وقع على السيد حسيب الجسري. فبات قاطعاً غير قابل للمراجعة أو النقض. وكان التنفيذ في سرعته يواكب قرارات سيد السوق في السيطرة على كل شيء.

كانت آخر ذبابة طردت من النافذة وأقفل من ورائها، هي التي أنهكت راحة لصبية المتعبة لساعات طويلة. وهكذا جلست أخيراً على المقعد تلتقط أنفاسها، وقد فضَّلت في اغلاق زجاج النافذة، حرّ الصيف على إزعاج الذباب. وبعد لحظات، همت الصبية بالحركة، وهي التي حملت منذ أسبوع زواجها الأول، وباتت الآن في شهرها الرابع، نحيلة بالرغم من الحمل الذي بات عبئاً عليها، فتعثرت خطواتها وهي تمضي متثاقلة نحو الباب الذي تكرر ضربه بقبضة نزقة لم تجد لها تفسيراً. ثم قرع الجرس فركبها خوف وهي الصغيرة التي لم تعتد جلبة كهذه من قبل، ولم تتوقع أي زائر في مثل هذا الوقت. هتفت مستفسرة عن الطارق من خلف الباب، فجاءها صوت متحشرج يهتف بقهر:

«أنا. افتحي الباب»

فخيل إليها أن ذلك مألوف لديها، ولكنها استبعدت أن يكون لزوجها، فالساعة لم تتجاوز العاشرة صباحاً ويكون هو عادة في غمرة جولاته على الاسواق، ومع ذلك هتفت:

«حسيب!»

فجاءها الصوت شبه باكٍ

«أنا حسيب، افتحي الباب»

وإذ تفتح له، تجد أمامها منظراً يثير الدهشة والفزع.

حسيب زوجها وحبيبها، حسيب الوديع والطيب الذي لم تسمع منه سوى الهمس الجميل، ولم تصدر عنه مرة ضجة في الدار، حسيب يقف أمامها مستنداً برأسه الدامية وقد ذبلت نظراته الذكية في عينيه. هتفت باسمه فردّ عليها بغصة ومن ثم ارتمى عليها يطلب سنداً. كان قميصه قد تمزق وبنطاله أيضاً، وتجمد الدم على ذراعه. تمنت لو تموت ولا تراه في مثل ذلك اليأس. كان كمحارب هزم في معركة دامية فلم يجد سوى صدر الحبيبة. أخذته من يده إلى الداخل فاستسلم لها كطفل. جلست قربه على المقعد تمسح علىٰ رأسه بكفها، فأنِس إليها دون بكاء.

«ماذا حدث لك يا حبيبي»

وسألته بعد لحظة:

«هل أستدعي الطبيب؟»

فاكتفى بدفن رأسه في صدرها، وسمعت آهة راحةٍ تخرج من اعماقه، فاطمأنت قليلاً.

سنتان مرّتا على لقائهما الأول. وكانت عذوبة ذلك اللقاء ما زالت كالشوكولاه بطيئة الذوبان في الفم، تتلمظ كلما تذكرتها. صغيرة لم تسمع من قبل كلمة حب، همس في اذنها «أريدك» ثم قال بخجل «سأكون أسعد البشر لو شاركتني السير على طريق صعب». وفي العرس كان الجميع يفرح بصخب، أما هو فكان في حالة من الدهشة، ستظل تذكرها متأملة كلما خلت إلى نفسها. يمسح على شعرها بكفه حتى تنام، وكلما تقابلا وجهاً لوجه، يقفل الصمت فمه ويفتح الحب عينيه فتدخلهما طلباً للطمأنينة والمتعة الصافية. كانت الصبية يتيمة فوجدت في زوجها الأمومة والأبوة، ووجدت فيه رجولة لم يكن فيها أية خشونة كما تعودت في بيت خالها المليء بالرجال الأقوياء، اصواتهم ترعب القطط والعصافير. وبالرغم من هموم الوظيفة التي ما كان يحدثها عنها كثيراً، فإنه ما أن يدخل الدار ويغسل وجهه حتى تعود الابتسامة إلى وجهه الطفل، وتظلل السعادة من جديد حياتهما الهادئة.

والآن، وكما لم يحدث من قبل، وكما لا يمكن لأحد ان يتصور، يبدو الجسري حزيناً

مقهوراً. يزحف ببطء نحو المقعد، يحاول ان لا يلتقي بعيني الصبية حتى لا تفزع، ويكتم آهات تتجمع في صدره، وظل صامتاً فهرعت هي إلى الحمام لاحضار القطن والكحول. ثم سمعته وهي تطهر جرح رأسه يتمتم بصوت شبه مسموع:

«هل يمكن أن تكون المعركة بمثل هذه الشراسة»

فلم تفهم الزوجة الصغيرة ما يقول.

بعد ساعة، كانت الطمأنينة قد حومت عليهما، وضمدت الجراح التي ظهر للصبية أنها سطحية، فقالت شاكرة إن الحادثة لا بد أن تكون قضاء وقدراً، وأن الله يحميهما دوماً. وكان الجسري يستعيد تلك اللحظات التي هوت فيها الصناديق عليه فقفز بغريزته لكنه لم يستطع أن يتفادى الضرر. وقالت الصبية راجية أن يتحاشى الخطر كرمى لها وللكائن القادم، فقال لنفسه:

«يبدو أن الأخطار بدأت حقاً»

بعد أن خرج الجسري حياً من بين الأخشاب والخضار المتناثرة، تجمع حشد هائل حوله من أهل السوق. سمع أصواتاً تهنئه بالسلامة، وأخرى تنتقد الاهمال في طريقة «تستيف» البضائع، وكان هناك من يعينه على الوقوف وآخر يمسح الدماء عن رأسه، وتطوع رجل يقف على القبان باستحضار التاكسي الذي نقله إلى الدار. وكان الجسري بعد أن استعاد وعيه يفكر، بغضب يستفحل، في الاستاذ جلال الحسين. كان مدير التموين يظهر أمامه على الشاشة المقهورة مبتسماً. هل يمكن لشماتة جلال الحسين أن تصل حد التشفي. وكان الموظف الشاب قد اكتشف وقائع عن مديره، أشياء كثيرة تتعارض مع المبادىء التي ما زال الجسري يتمسك بها بجنون، ولكنه ظل ينفيها، فهو لم يصل بعد مرحلة الاتهام. واليوم يفكر بالاستاذ جلال الحسين متهماً.

لقد رأى الموت يسقط عليه من أعلى، فتحاشاه برشاقة. وبينما الشاب يقفز في الهواء كانت حياته تتلخص في جملة واحدة قالها مرة والده «لا تكن قاسياً فتكسر». تذكر الجملة الباردة، وشعر عبرجزء من الثانية أنه أخطأ فهم الحكمة التي أوردها والده في جملة مبتسرة قاسية مؤذية كالشوك في الحلق. كان والد الجسري قد

دفع ثمن قسوته في سلك الشرطة، فسرّح من عمله زوراً وبهتاناً، وكان ابنه يصرّ مصححاً:

«لم يكن اسمها القسوة.. بل النزاهة»

فيبتسم الشرطي السابق متمتماً:

«النزاهة باتت حسب العرف والعادة قسوة يا ولدي»

وهكذا علمته الأيام، فنصح لابنه ألاّ يكون قاسياً فيكسر. إلاّ أن النصيحة كما فسّرها الشاب لم تكن سوى خوف عليه، وهكذا ازداد صلابة. وسيعتبر مهمته في الحياة قائمة في الكشف عن أي سارق أو متلاعب أو مرتش. كان أكثر الناس حقداً على من يعتقد أنه سيء ومضر.

كانت نتائج مسابقة رئاسة مجلس الوزراء السنوية قد وضعت اسمه بين العاملين في وزارة التموين، فعلم أن الفرصة جاءته، فنشطت عنده حاسة ملاحقة من يعتقد جازماً أنه كان سبباً في تحطيم والده. وهكذا، ومنذ الأيام الأولى لدخوله الاسواق وقر في نفسه أن التاجر الذي يخفي ربحه عن الضرائب أو أنه يحتكر مادة غذائية أو يتلاعب بالأسعار التي ما عاد سواد البشر بقادرين على ملاحقتها، ذلك التاجر بات موضوعاً أثيراً لديه ويجب متابعته، والجبريني كان واحداً من تلك المواضيع البارزة في قائمة اهتماماته. ولمثل هذا الأمر، تمّ التنسيق بينه وبين صديق الدراسة أحمد الذي عين مراقباً للدخل، فكانا يتبادلان المعلومات بتكتم وسرية للوصول إلى العدالة التي كانا يحلمان بها وهما ما زالا على مقاعد الدرس. وعندما هوت الصناديق من أعلى، ونجا من موت يبدو أنه كان مرسوماً له أكثر من احتمال المصادفة، تركزت أفكار الجسري على مديره الاستاذ جلال الحسين الذي تحولت صورته إلى بؤرة ممغنطة تجتذب اليها كل ما هو سيء وقبيح ومقرف.

كان لم ينقض عليه زمن في الوظيفة، حين بدأ في تدوين ملاحظاته عن عمله الذي بدأ ساخناً منذ أيامه الأولى. ودفعه تقصيه الذي سكنه إلى تلمس حقائق تتعلق بالمدير، فهو كما ظهر له يتصرف بالتقارير التي تكتب عن تجار السوق على هواه، وكانت كلمته المشهورة «هذه على مسؤوليتي» تثير الشك في نفس الجسري.

يكرر الشكوى في تقرير جديد عن تاجر بعينه، فيختفي التقرير في أدراج الاستاذ جلال، وينزل ايقاع الكلمة المشهورة هذه على مسؤوليتي، كالحجر على رأس الموظف الشاب. وتساءل الجسري في ظلمة الغرفة مساء الحادثة:

«ماذا لو دُفِنت تحت الصناديق الثقيلة؟»

ثم بحقد هائل عض على حلقه:

«بل يجب له هو أن يموت»

ولأول مرة في حياته، التي مر عليها ثلاثون سنة من الأحلام الصغيرة الجميلة، يفكر بإيذاء أحد، بل بقتل انسان محدد. قال لنفسه وهو يتقلب في الفراش:

«سيكون قتل المدير عبرة لمن سيأتي من بعده»

وقال الجسري وهو يفكر، متظاهراً بالنوم إلى قرب زوجه التي تظاهرت هي بالنوم أيضاً:

«لو ان عقاباً شديداً وقع على امثال الأستاذ جلال الحسين، لما تكرر الخطأ، ولما تعرضت للموت»

ثم تمتم بصوت غير مسموع:

«يبدو أننا مكلفون بأداء مهمة العقاب»

وكانت ساقه التي خدشت، قد بدأت تنبض بألم متسارع، ولعب ذلك التسارع دوراً في دفع أفكاره نحو الانتقام. هتف:

«لا ليس الانتقام، بل هي العدالة ما أريد»

وتحول جلال الحسين في الظلمة إلى مخلب هائل ينغرز في لحم آلاف الأجساد التي هوت على الأرض تئن. وكان الشاب يمسك بالفأس يحاول أن يفتت جبروت المخلب. واستوى الجسري جالساً في سريره، فسمع صوت زوجه التي مثلت انها قد صحت لتوها قلقة عليه:

«هل يؤلمك شيء يا حبيبي؟»

فتمتم الشاب كاتماً غيظه:

«قليل من الألم، سرعان ما يزول»

ثم بلطف حنون:

«عودي إلى النوم يا حبيبتي، فأنت بحاجة إليه»

ولم يكن الجسري ليتوقع في اليوم التالي أن يحدث ما سيحدث. قال له موظف الديوان وهو يوقع على جدول الدوام إن المدير قد طلبه مرتين. كان قد تأخر ربع ساعة عن الالتحاق بعمله بسبب آلام في الساق والجذع والرأس، وكان من الصعب عليه أن يجد مكاناً له في الباص فقد ازدادت أوجاعه، وهكذا كان تأخره نتيجة انتظار طويل لباص أقل زحمة، لكن موظف الديوان لم يأبه لشرحه بل عاود النظر إليه بعتب وهو ينقل إليه إلحاح المدير على طلبه من جديد وكأنه المدير نفسه. أحسّ بقلق خفي، لكن حقده على الاستاذ جلال تغلب على القلق، فتطلع إلى زجاج النافذة، وكأنه يخاف أن يكون شيئاً من افكاره قد ارتسم على صفحته المضطربة.

«لا تكن قاسياً فتكسر»

ردّ الجملة في سره، وابتسم، لأنه تخلى عن القسوة والكياسة، وبات يفكر في الدهاء، والدهاء كان عنده الآن هو القتل.

القتل! أية كلمة مرعبة لم يحتملها من قبل. كانت طفولته مليئة بذكريات عن القتل رواها والده، وقد عمل فترة في الشرطة الجنائية، فكان يحس بالرعشة وهو يستمع إلى حديثٍ عن جريمة، أما الآن فالكلمة تسبب له نوعاً من الرعشة اللذيذة. موت جلال الحسين إنقاذ لكل القيم التي كان الجسري يحلم بها.

الآن، سيحدث كل شيء لم يكن مرسوماً. سينقر الباب بتهذيب ثم يدخل بأدب شديد. وكانت الآنسة الشقراء مديرة المكتب بعينيها الضيقتين اللتين لم تحملا سوى الشك، هي التي أوقفت تحسباته وهي تقول «انتظر قليلاً»، ثم تغيب خلف باب المدير. وكان الشاب يكره المسلسلات التلفزيونية لكثرة ما تصور مكاتب المدراء والسكرتيرات الحسناوات، وكان على يقين من أن مديره لا تفوته مشاهدة تلك الأفلام، وهو بالرغم من غرامه بتغيير أثاث مكتبه ظلّ محتفظاً بهذه الآنسة

الشقراء التي لم تبادل الشاب الجسري أي احترام أو مودة.

ثم ابتدأ الحدث. دخل الجسري الغرفة الواسعة بخطوات واثقة، ففاجأه أنها تحولت خلال فترة قصيرة إلى ما يشبه الحديقة الشتوية محتشدة بنباتات الزينة المختلفة الأنواع، وكأن الغرفة باتت لمدير الزراعة. وكان الاستاذ جلال الحسين على كرسيه الجلدي يجلس خلف المكتب المهيب والنقوش التي حفرت من خشب الجوز توحي أن الرجل يصلح أيضاً ليكون مديراً للآثار أو السياحة. كان المدير يلاعب قطاعة الورق الفولاذية وكأنه يستعد لصراعٍ دام، فأومأ برأسه المفلطح للقادم أن يتقدم، ففعل.

ظلّ الجسري هادئاً يقابل تفحص المدير الطويل له. ثم أشير له أن يجلس على كرسي ملتصق بالمكتب فجلس. قال المدير بوقار بارد:

ـ « ماذا فعلت يا سيد جسري؟ »

ـ ثم يخرج عن الوقار بانفعال منضبط:

ـ « ماذا فعلت يا سيد جسري؟ »

ـ ويهتف بغضب هادىء:

ـ « هل أنت مراقب تموين، أم مخرب لسوق الهال »

ـ وأضاف بعد صمت متعمد:

ـ « المدينة تتوسع وتكبر، وهي تأخذ احتياجاتها من هذا السوق »

ـ ويتابع المدير وهو يهزّ قطاعة الورق الفولاذية بعصبية لم يستطع أن يسيطر عليها:

ـ « هل تعلم ماذا يعني أن يقع على الأرض طن من الخضار. طن كامل يقع على الأرض ويتناثر فتدوسه أقدام المذعورين؟ »

كان الاتهام الرسمي من ادارة سوق الهال قد وصل إلى مدير التموين قبل نهاية دوام البارحة، وهو موجه إلى الجسري نفسه، وقد تسبب غضبه بل حمقه في قلب صناديق البضاعة على الأرض. وصاح المدير:

ـ « آلاف آلاف الليرات تسقط على الأرض. ألسنا مسؤولين نحن عن الاقتصاد الوطني؟ »

ـ ثم يصيح بغضب هادر:

ـ «عندي العشرات من مراقبي التموين غيرك، ولم يتسبب أحد منهم في مشكلة كما فعلت أنت» ثم إن جرس أحد الهواتف جعل يرن، فحمل الأستاذ جلال السماعة يتحدث فيها. وكانت عينا الجسري تسيطران على القطاعة الفولاذية التي كان نصلها كافياً لاختراق أي صدر.

وتابع المدير بعد أن أعاد السماعة:

ـ «أريد تقريراً تفصيلياً عما جرى البارحة في سوق الهال، وإني أحملك مسؤولية تشويه سمعة مديريتنا، بل أحملك مسؤولية تخريب الاقتصاد الوطني»

ـ ثم تطلع إلى الجسري بحنق متفجر:

ـ «أنت شاب في مستهل حياتك الوظيفية، وهذه بداية غير مشجعة »

عندما غادر الجسري الغرفة، وكان مديره منشغلاً بمكالمة استوجبت منه الوقوف احتراماً للمتحدث على الطرف الآخر، عاد الأستاذ جلال إلى كرسيه مرهقاً، لكنه ما لبث أن قرع الجرس بضيق لتحضر السكرتيرة الشقراء فيسألها عن قطاعة الورق التي كانت على مكتبه، فتظهر الدهشة في عينيها ومن ثم العتب، لأن تلك القطاعة كانت هدية من الشقراء نفسها لواحد من أعياد ميلاده المتكررة لأكثر من مرة في السنة الواحدة.

فجأة أحسّ جلال الحسين بوخزة في صدره، فتحسس موقع الألم. قال للفتاة السكرتيرة:

«كأن سكيناً اخترقت صدري»

ثم بمحاولة لبث الطمأنينة في نفسه:

«لابد أنه البرد، فقد كانت برودة الصباح قاسية وأنا أركض في الملعب»

وأجابت السكرتيرة وهي تغادر الغرفة بغنج يثير عذابه:

«عَينٌ وأصابتك»

ولكنه بالرغم من ذلك يبحث عن القطاعة الفولاذية التي اختفت من غير رجعة.

ـ أين اختفت قطاعة الورق؟

كانت ملامستها و تحسسها المستمر يذكره بسكرتيرته التي باتت معاشرتها من تقاليد العمل اليومي . والقطاعة كانت أيضاً، يلمع طلاؤها بالمتعة والألق الذهبي كما تتوهج أبداً منذ أن قدمت إليه هدية منها، فاعتبرها رمزاً لضرورة اختراق الحواجز التي تقوم بين المدير وسكرتيرته . واستعرض جلال الحسين من زاره واحداً واحداً وهو يفكر في اختفاء القطاعة المفاجىء.

ـ « مدير الاقتصاد! »

ـ لا لا يمكن فالرجل جاد ولا يعرف الهذار، وقد أمضى عنده زمناً مكثفاً مضى بعدها غير راض، ولا يعقل

ـ « مندوب العمال! »

ـ مستحيل، فقد اجتمع به لدقيقتين اثنتين في الزاوية الغربية، ولم يقترب من المكتب خطوة واحدة.

ـ « اذن فهو ذلك الشاب المشاغب »

هل يمكن له أن يكون خلال الحديث التلفوني قد سرق القطاعة؟ ولِمَ يسرقها؟ الآن تذكر كل شيء، والسرقة لابد أنها وقعت لأغراض إجرامية . لقد كان

الجسري شرساً في نظراته المتحدية، فلم تؤثر فيه الملاحظات القاسية التي صبّها عليه. وكان جلال الحسين إثر مكالمة هاتفية هامة قد نسي قضية الموظف الذي كان يريد أن يؤنبه، بل أن يؤدبه لتجاوزه الحدود، ولتطاوله على القواعد التي وضعها هو نفسه للتعامل مع السوق. وعندما استدعى السكرتيرة يسألها عن اختفاء القطاعة، استغربت هي منه السؤال، لأنها تعلم مدى حرصه عليها وقد باتت جزءاً من شخصيته لا تفارقه أبداً. وحين تسأل عن شكه في الموظف الذي اسمه الجسري، نظرت إليه متعجبة وقالت إنها لا تحتمل مزاحاً كهذا، فهل يجرؤ موظف مسكين منطوٍ على نفسه كالجسري أن يسرق مديره، فقال جلال الحسين ساخراً:

- « موظف مسكين ومنطوٍ على نفسه؟ إنه يعمل على هدم كل شيء »

وبعد لحظات، كان يطوي المصنف أمامه ويقول للسكرتيرة أن تطلب له البيجو البيضاء، فعلمت أنه مطلوب لمقابلة مسؤول كبير، لأن اللاندروفر كانت مخصصة للجولات التقليدية في الأسواق، والفولسفاكن للتفتيش السري المفاجىء.

تحول جلال الحسين خلال فترة قصيرة لم تتجاوز السنوات القليلة، من حال إل حال. كان في القهوة التي يتردد عليها يلعب الطاولة، يشكو القلة، وهو الآن مدير يشار إليه في المناسبات، ولا تخلو صفحات الجريدة المحلية الوحيد من أخبار عنه، وهو يلاحق المحتكرين ويراقب المسيئين إلى قوت الشعب، ويخشاه تجار الجملة والمفرق ويحسب له أصحاب المطاعم حساباً. كانت شهرته الشعبية في القسوة لا تقل عن شهرة المسؤول عن الأمن الجنائي، ولم يسبق للمدينة أن عرفت مديراً للتموين يشبهه في سهره على شؤون إدارته بالرغم من ارتفاع الأسعار المتواتر كالحمى، كان جلال الحسين قد نسي تماماً أيام الشقاء. نسي المسافة بين بلدته الصغيرة المعفرة بالتراب والقرية المجاورة، إذ كان فيها معلماً وكيلاً يعلّم التلاميذ الفرق بين الواحد الحسابي والألف، ويقطع المسافة بينهما مشياً على الأقدام عبر

طريق ترابية تأخذ من وقته الضائع ساعتين على أقل تقدير، إلاّ إذا عطف عليه صاحب حمار يقدر العلم والمعلمين فيأخذه معه، ليتعثر الحمار المسكين بثقل الاثنين على ظهره. لم يعد ذلك الماضي حاضراً في ذهني سوى تلك العلاقة التي ربطته بعبد الغفور العبد الله، الذي لا ينسى أبداً وجهه المحفور بآثار الجدري.

كان عبد الغفور العبد الله، قد سبقه إلى المدينة بسنوات ليصبح بعد ذلك من أهم المسؤولين فيها، يحرسه رجال يفوق عددهم أهل الحي في بلدتهم الصغيرة التي ظلت تذكره دوماً، ولم يتخلّ هو عنها. وهكذا استدعي جلال الحسين الى المدينة الكبيرة ليكون رئيس مرآب في البلدية، ثم أصبح مسؤولاً إدارياً عن الموظفين فيها، وعندما بات مراقباً للأسعار في مديرية التموين، كانت الخطوة التالية منطقية وسهلة لتضعه مديراً على كرسي دوار.

وتمتم جلال الحسين بكلمات مبهمة نزقة، فانتبه إليه سائقه الذي غطى وجهه شاربان هائلان طالما أثارا الذعر في قلوب أهل السوق. وبعد لحظة كان جلال الحسين يقول لنفسه وقد احتل المقعد الخلفي باحتفاء كبير بها:

« لقد تمادى الرجل حقاً »

فلم يجرؤ السائق على الاستفسار وهو الذي لم يفهم ماذا يعنيه معلمه بهمهمته، ظلّ يهدر بسيارته في الشوارع المكتظة كي يعرف المارة أن رجلاً مهماً يقبع في الداخل. وسمح لنفسه بعد قليل أن يتوجه بالسؤال وعيناه على الطريق:

« هل يزعج المعلم شيء؟ »

فلم يلق جواباً.

عقل جلال الحسين يعمل، لكن المخيلة تنشط أيضاً. هذا العبد الغفور العبد الله يذهب بعيداً في أوامره وطلباته. هو ولي النعمة، لكن الأب إذا اشتط في أبوته بات مكروهاً. ابتدأت فظاظة عبد الغفور العبد الله تتجلى في أقسى صورها خلال الأشهر الأخيرة، ولم يكن ليدرك السبب، فهو يؤدي ما عليه من واجبات تجاه ابن البلد ورفيق الأيام الصعبة وولي النعمة، لكن الرجل يطالبه بأكثر مما يستحق ويتجاوز الحدود التي تعارفا عليها من قبل. صحيح أنه دفع به في سلم الصعود،

لكن أن يدفع به إلى هاوية الاستسلام لكل أمر ومطلب فهذا أمر آخر. جلال الحسين حانق، بل حاقد.

كانت المدينة في شوارعها وتقطعاتها والأبنية الحجرية المسودة من آثار المازوت والبنزين، تمر عليه كصور جامدة في مرآة متطاولة فقدت بريقها. لم يحسّ لحظة بجمال المدينة التي يكتب عنها مغالون في عشقها ومنافقون لتاريخها، إلاّ أنه أحسّ بفائدتها له في تكوين مستقبل سريع وثروة تتباطأ في نموها، لأن العبد الله لا يسمح لها بالتكاثر السريع. قال لنفسه:

ـ « أعلم أنك فعلت الكثير لي »

ثم غطس أكثر في المقعد الخلفي، بينما عيناه تلاحقان المشاهد المتتابعة خارج السيارة.

وقال لنفسه:

ـ « لا يمكن لك أن تملك المدينة لوحدك »

وتمتم بحسرة:

ـ « عشْ ودع غيرك يعيش. كلْ واترك شيئاً لغيرك يأكله »

طالما التزم جلال الحسين بتعهداته تجاه ولي النعمة، لكن الطمع ما عاد يرحم. إن للسوق طاقة، ولا يمكن لنا أن نذبح العجل الضعيف. هو يقاسم العبد الله بالعدل لكن العدل يضيع والجشع لا يريد أن يترك للصداقة مكاناً.

ـ « ما هكذا تكون القسمة يا عبد الغفور »

ـ وكان على جلال الحسين أن يضع حداً لمثل هذا التطاول على الاتفاقات المبرمة بين صديقين وابنين لبلد واحدة. وبدا هتافه بكلمات مبهمة كالهذيان:

ـ « لا يمكن له أن يشبع بسهولة. السيف المسلط على رقبتك بحاجة إلى سيف مقابل »

ـ وفجأة خطرت لجلال الحسين فكرة القتل. العين بالعين والسن بالسن، والجشع يقابله الانتقام. كانت الصور السود تتلاحق أمام باصريه وكأنها نسخة سلبية لفيلم لم يشاهده من قبل.

سكنت حركة المحرك وقال السائق « وصلنا يا معلم »، لكن حركة العنف في مخيلة جلال الحسين لم تتوقف. وظل لحظة قابعاً في المقعد الخلفي، لكنه ما لبث أن ترجل وكان المبنى مسوراً بالحراسة المشددة، لكن المسلحين الذين ألفوا زيارته رحبوا به كعادتهم، فمضى إلى الداخل. كان مدير مكتب العبد الله الذي لا تنفرج أساريره إلّا لقلة من الناس، وجلال الحسين واحد منهم، مقطباً كأرض بعل لم تنزل عليها نقطة ماء منذ سنين. في تلك اللحظة المعتمة أحسّ جلال الحسين بالخطر. الدعوة مشبوهة وليست في وقتها، والاحترام ليس كما كان من قبل. هاهو الآن على المقعد لا يشرب القهوة ولا يدخن كصاحب المكان. إنه بالانتظار الممل الطويل. رصاصة تخرج كالشهاب الذي يضيء ظلمة قاتلة. رصاصة تخترق الجمجمة. جمجمة تتناثر كهشيم البيدر. جمجمة عنكبَ فيها الطمع، فهي إلى رماد اذن. من المسؤول؟ صراع مع خصم! لا فجلال الحسين لم يكن خصماً بل تابعاً أميناً ينحني احتراماً للسيد.

قال مدير المكتب المتجهم وهو يقلب الأوراق مقلداً معلمه:

« تأجل الموعد قليلاً »

بعد قليل قال مدير المكتب الذي بدا وكأنه أصيب بفقر في الدم:

« نصف ساعة »

تمتم مدير المكتب بعد نصف ساعة طويلة اشتعلت فيها سجائر جلال حسين مع فلترها:

« يوم حافل »

هو يوم الانتظار المذل. يوم الانتقام. هتف جلال الحسين:

« لم يبق لك سوى الانتقام لنفسك »

مسدس كاتم للصوت ينتظر نزول العبد الله من المرسيدس متجهاً نحو مدخل ركنه المفضل في النادي ليشرب الشيفاز ريكال. لن يهنأ في تلك الليلة بمصمصة شفتيه بعد الرشفة الأولى من الويسكي الحارق. آه يا ابن العبد الله الذي لم يعرف غير الشنينة.

قال مدير المكتب الذي بدا ملتوياً كنربيج نارجيلة ممزق:

« دقائق ويأتي دورك »

ومتى كان لي دور وأنا المفضل أدخل متى أشاء؟ لنفسه قال جلال الحسين. ثم:

« كم سيكلف الموضوع لو نفذ العملية أحد؟ سيقولون تصفيات سياسية، ومن سيشتبه بك »

ثم بحرقة:

« لقد تمادى العبد الله »

الرافع هو الله، وهو الخافض. المذلّ وهو القادر على كل شيء. وأنت رفعتني، وأنت دفعت بي إلى أمام، وأنا مدين لك يا صاحبي، ووعد الحرّ دين فأنا ألتزم بالوعد. هل قصرت أو نسيت التزامي تجاهك؟ هل تذكر أيام الفقر. متى كنا نعرف شيئاً اسمه الكافيار أو الشاتوبريان. لك ما تريد، أوليس لي الحق في أن يكون لي ما أريد. زوجتي لها أمنيات أيضاً وسأعمل على تحقيقها. لن أسمح لك يا عبد الغفور

هكذا كانت الأفكار تأخذ مكانها بين الحروف التي تدفقت كالسلاحف الصغيرة تجري بين اللهاة والشفتين، لكنه لبث ساكناً كتمثال استند على طرف المقعد تبعده مسافة عن الصدارة التي احتلها العبد الله صامتاً يتطلع إلى زائره بنظرات التوجس والشك. وهكذا وقع جلال الحسين في المصيدة كفأر لا يمتلك سوى الأمنيات في الخلاص. مسافة من البرود القاتل يشكله تأمل العبد الله له وكأنه صياد استدرج فريسته كي يتسلى بها قبل سلخها

رصاصة واحدة لن تستغرق زمناً في الوصول إلى الهدف. الرأس، أو القلب، هدف واحد تصبح بينه وبين الفوهة مسافة حاسمة. قال الحسين لنفسه:

« أما آن لهذا القلب الخشن أن يتوقف! »

ثم ابتسم برياء يقول:

« لا يمكن لي أن أضغط أكثر على الناس »

كان العبد الله قد بات منذ سنوات الأقوى في المدينة. وتعوّد جلال الحسين

أن يودع نصيب ربّ نعمته في مظروف يضعه على طرف المكتب باحترام، ثم يعود إلى أيام القرية فتذوب الحواجز بين الرجلين ويتبادلان آخر النكات عن أزمة الرغيف أو أسعار اللحوم أو تناوب العشيقات بين الرفاق. ابتدأت النسبة معقولة وصغيرة ووجدها جلال الحسين من حق الرجل الذي غمره بالأفضال. ثم جعلت النسبة تشق لنفسها طريقاً نحو التضخم البطيء كأنما تساير الغلاء المستشري. قال عبد الغفور العبد الله بجفاف صحراوي:

« لا أتصور أبداً رجلاً مثلك ينسى واجباته »

والأخلاق الوظيفية لم تبتعد عن حديث الرجل بين هاتف يأتيه وآخر يرسل به

« أين تلك الصداقة القديمة أين أيام القرية البريئة »

وكانت وصايا العبد الله تحمل في طياتها الوعيد. أنا الذي صنعتك. أنا الذي يضع رقم الضريبة. قال جلال الحسين لنفسه:

« أنا خائف مما سيحدث »

هل يمكن لكل شيء أن يعود إلى نقطة الصفر. كان ثمة رجال آخرون قد صعدو ثم هبطوا، وقد أقسم ألاّ ينزل إلى الماضي من جديد. أين هو المسدس. هوذا المسدس. أين ماسورة كاتم الصوت. هي ذي الماسورة. وأنت إذا نفذت ما هو مطلوب منك فأنت ثري. فقط، أريدك ألا تخطىء الهدف وأن تفلت من أيدي المرافقين. الآن، العبد الله بعد أن ترهل ينزل من سيارته ببطء. العبد الله سيترنح دون أن يدرك أحد ما أصابه. رصاصة واحدة لا تكفي. اربع طلقات، واحدة منها في القلب، وأخرى في الرأس تحوطاً، ثم يوزع الرصاص على باقي الجسد مباركة له على توقف النبض فيه. ويهتف جلال الحسين:

ـ « هكذا تكون النهاية التي لا بد منها ».

كان الشارع الثالث في الضاحية الجديدة التي لم يتجاوز عمرها السنوات الخمس، قد اكتمل بناء أراضيه بالأخيرة تلك التي اشتراها عبد الغفور العبد الله، وكانت الفيلا على العظم فكساها كما تريد زوجه، لتصبح فريدة من نوعها في الشارع، إذ جمعت بين الاسراف في الزخرفة العربية وبين السقوف المائلة من قرميد أحمر تذكر بريف أوربي، فباتت نموذجاً للخلط بين أشكال البناء الشرقية والغربية، وأما السور المدجج بقطع البلور المدببة فيعطي فكرة عن مهابة أهل الفيلا. وكان المحرس الذي يحمي المكان يعج برجال تعود أهل الشارع على أسلحتهم المشرعة، وقد كانت الشكوى منصبة على هؤلاء الحرس في البداية، ثم ألِفَ السكان منظرهم وتحركاتهم المللولة على طول السور الحجري الكتيم، وبات المشهد علامة فارقة من علامات الضاحية.

كانت أم لهب الثانية، بعد انتقال الزوجة الأولى إلى المصحة العقلية التابعة للاوتيل ديو في جبل لبنان البعيد. وتولت أم لهب إدارة كل شيء في الفيلا، وهي التي طبعت كل تفصيل من تفاصيل الدار برغباتها التي لا يحدها مستحيل. كانت أشبه بقائد عسكري لفيلق مطيع ومدرب على التنفيذ دون تفكير. لصوتها الحاد ايقاع المهابة في نفس من يستمع إليه. وهكذا تحولت هيبة عبد الغفور العبد الله الطاغية خارج الدار إلى استسلام لا مثيل له لإرادة سيدة المملكة. وهي التي

حتمت أن يستمر الانفاق على الضرة المجنونة بسخاء، وكأنها تريد أن تضمن لنفسها الجنة في الوقت الذي تضمن فيه استمراربقاء الزوجة الأولى في منفاها.

أم لهب هي الآمرة الناهية، فكان رجال زوجها يهابونها كما يفعلون تجاه سيدهم. لذا يمكن الاعتراف بأن أم لهب كانت أكثر نساء المدينة ذكراً بين الناس، يقولون أم لهب إذا استعصت عند أحدهم مشكلة. كان لها صالونها الخاص عند مدخل الفيلا، تستقبل فيه المراجعين وكأنها المسؤولة الأولى عن حل قضايا الناس وحاجاتهم، وكانت الحليّ والمجوهرات وأحياناً الدولارات هداياها المفضلة التي لا تقبل بديلاً عنها لقاء حلّها المشاكل المستعصية. وكثيراً ما قيل في المدينة أن أم لهب تقتني أكبر مجموعة من المصوغات، بل قيل أنها تحتفظ بها في خزانة سرية من خزائن مصرف سويسري. وفي الأحوال كلها، فإن الرجل الموضوعي يجب أن يأخذ بعين الاعتبار دور المبالغة والتهويل في أمور كهذه يتداولها البشر كلما ضاقت بهم الحال واشتد ضغط الحبل على أعناقهم. المهم من هذا، ان الرجل كان لا يرد طلباً لزوجه، ولكن أهل المدينة لم يذكروا له مثل هذه الفضيلة على الاطلاق.

وإذا ما عدنا إلى الوقت الراهن لنحافظ على سياق الأحداث، فإننا نلاحظ أن العبد الله كاد أن يصاب بالجنون في ذلك اليوم وهو يرى إلى صنيعته جلال الحسين متمرداً لا يظهر الخضوع الذي عوّده عليه، بل كانت عيناه تبرقان باعتزاز لم يألفه فيه. أهو زمن الجحود ونكران الجميل. الويل لك أيها الأحمق فقد انتهت أيامك. إلاّ أن طيف عائدة الجميلة وهو يتصاعد مع أنفاسه المتلاحقة ليسدّ عليه رؤية أي شيء دونها، جعله يؤجل اتخاذ القرار الحاسم بشأن ذلك الصنيع الذي فاحت منه رائحة الخيانة. وما جعل ثورته على جلال الحسين تنزاح من الطريق هو ثورة عائدة التي قابلته في ذلك اليوم بغضب لبؤة كادت عيناها تتحولان إلى أنياب قاطعة.

كانت عائدة تتم العشرين من عمرها بتسارع العلاقة المتفجرة بينها وبين العبد الله. ومنذ زمن قصير حصلت عائدة على عمل في شركة البلاستيك العامة بعد بطالة لم تعثر خلالها على عمل بالرغم من جمالها. وتساءلت هي أكثر من مرة

« هل الجمال نقمة حقاً ». كان زوج أمها فقيراً كذلك، لذا سعت بكل قوتها واصرارها لمساعدة العائلة. دقت الأبواب وملأت الأوراق، لكن كبرياءها لم يقدره أحد في أي من الشركات والادارات   وعندما قابلت مدير شركة البلاستيك رآها متعبة يائسة، ففتنته خصلة الشعر الابنوسي وقد هربت من الايشارب الذي لفت به راسها. نظر طويلاً إلى الوجه الآسر فتحركت كل غرائزه التي كبتها سن اليأس المبكر، فاصدر أمراً بتعيينها الفوري على مقسم الهاتف الذي تفصله عن مكتبه غرفة السكرتير الذي صُرف في اجازة طويلة كي يستطيع المدير المرور إلى الموظفة الجديدة دون رقيب.

كان صوتها الرجراج الذي أعطاه الخجل ليونة تثير سمع من وقع في أذنه نداء عايدة. ولم يكن مدير البلاستيك أول العاشقين الفاشلين في الحصول على شيء خاص من الصبية، بل كان أول المتراجعين عن جنون الوله عندما دخل عبد الغفور العبد الله على الخط ليضع وصايته على الموظفة الجديدة.

سمع العبد الله صوت عايدة عندما كان هاتف مدير البلاستيك الخاص معطلاً عن العمل، فلم يستطع أن يقاوم. جاء بنفسه ليتعرف على صاحبة الصوت الذي يشعل الرغبة بنبراته في قلب ميت. رآها من شق الباب وهو يمرق إلى مكتب مدير البلاستيك. توقف لحظة، لكنه تقدم بجرأة يسمح بها موقعه في المدينة، وألقى نظرة فاحصة. ثم قال بلهجة آمرة « اسمك » قالت « عايدة »، وكان مشهده يوحي بقوة الايذاء، فاستسلمت. وكان قلب العبد الله يكاد يموت من أم لهب، لذا فإنه إذ يكتشف تفاصيل أكثر من جمال موظفة السنترال، بات صريع حب جنوني يؤرقه حتى وهو يشرف أحياناً على استجواب المعارضين السياسيين.

كان يعلم أن فارق السن كبير بين عاشقين مثلهما، لكن سلطانه تحت الفوارق، وبات لها بيت صغير يلتقيان بين جدرانه التي كسيت بالفلين حتى لا تتسرب آهاتها الفطرية إلى أحد. وقد أحسّ العبد الله أن الصبية تحبه حقاً، فهو الذي منح عملاً لزوج امها وأدخل اخواتها مدارس خاصة وأبعد عن دارهم الأذى، وهو أيضاً بمهابته أبعد كل الطامعين في جسدها الذي اكتشفت خطورته بين

ذراعي العبد الله الأقوى من كل شيء في العالم، فأحبت ذلك الجسد وابتدأت رحلة العناية به.

باتت عائدة تحصل على أكثر مما كانت تحلم به أو تنتظره منذ طفولتها وحتى اكتمال فتنتها، إلا أن الشيء الوحيد الذي لم يستطع العبد الله أن يحققه هو الزواج منها. في البداية كانت القناعة والرضى، ولكنها ما لبثت أن تساءلت «متى»؟ ثم تساءلت وألحت، فيقول عندما أضع حلاً لأم لهب. ها هي سنة العسل المحرم مرت. وفي ذلك اليوم خرت عائدة على ركبتيها باكية عارية إلاّ من توقها إلى كلمة تمسح عنها الخوف من الأيام القادمة. وكان عبد الغفور العبد الله صادقاً في حيرته وهو يضم الصبية إلى صدره ويفكر. لكنه في ذلك اليوم صمم على أن يفعل شيئاً يضع حداً لسرية علاقته مع امرأة سيحسده عليها كل الأصدقاء والأعداء. كان ذلك العزم قد ظهر على صفحة وجهه ليزيده قساوة.

كانت أم لهب لا تظهر لأحد أنها تعبر الجسر نحو أواخر سنوات الشباب والرواء، بل إنها ما كانت لتعير الأمر اهتماماً خاصاً، فهي سيدة كل أمر، وقوتها تدفعها للتحرك في أرجاء الفيلا تتنقل بين الطابقين وفي الحديقة وبين صالون الاستقبال الملحق بالدار. هي تعطي الأوامر وتستقبل الضيوف والمراجعين، وهي توجه ابنها الوحيد لهب وترعاه، وهو الذي جاء متأخراً فما زال فتى مراهقاً يمضي وقته في قيادة السيارات وملاحقة الفتيات بالرعب الذي ترسله الفرامل المفاجئة. تطلعت مرة إلى وجه لهب فرأت فيه شبابها، فأفسحت للصبي منذ يفاعته المجال كي يمتلك كل ما يريد ويحصل على ما يرغب، فبات أشهر المدللين في المدينة.

وكانت أم لهب قد ورثت عن نامي بك والدها حب امتلاك المساحات التي لا تنتهي فقد كان ذات يوم سيداً لكروم الزيتون الممتدة دون حساب إلى الحدود الشمالية، ثم جاء الاصلاح الزراعي ليجرده من كل شيء حتى حياته، إذ قضى كمداً وحرقة. وكانت آنذاك صبية صغيرة لكن الحقد لم يقعدها فاتخذت قراراً في استعادة ما فقد، وهكذا عندما قابلت عبد الغفور العبد الله لأول مرة، وكان طموحاً يتطلع إلى أعلى، وزوجته امرأة عادية، اتخذت قرارها الخطير. العبد الله

هو الذي سيعيد لها مجد أسرتها الغابر، وهو الذي سيمشي أمامها وبقربها ومن خلفها لنسف كل العوائق التي ستقف أمام تحقيق الحلم. أم لهب دفعت زوجها في طريق المناصب التي تواترت بارتقاء، وهي التي دربته على فنون الحصول على المال والكيد لمن يعترضه، وهكذا دخلت ضرتها المصحة.

دهاء وشكيمة، فباتت أم لهب امرأة يضرب بها المثل في المدينة، حتى أن الجيل الجديد ظنّ أن الأمثال التي لها علاقة بأم لهب قد جاءت من باطن التاريخ العتيق واعتقد أنها شخصية غير موجودة أو خرافية. وكانت أم لهب تعلم كل شيء من أعمال زوجها، إلاّ أن عائدة لم تكن في الحسبان. وعائدة التي انفتحت لها أبواب الجنة لم تكن لتعلم أن غريمتها التي تقف في وجه الحب السري الجامح، الذي كانت الصبية الجميلة تغزله على عود عبد الغفور وكان هو ينسجه على جسد عائدة الأشبه بالحلم الذي لا يغفو أو ينام أو يستكين، عائدة لم تكن لتدرك أن القتل قد يكون مصيرها لو علمت أم لهب بالحكاية. ولكن مثل هذا الأمر لن يحدث.

طويلاً، فكر الرجل في حل. كان الطلاق مستحيلاً، فأم لهب هي خزانة الاسرار، وتعرف كل صغيرة وكبيرة عن حياته، والوثائق التي بين أيديها تكفي للإطاحة به وهي قادرة كذلك على تحطيم حياته السياسية والاجتماعية والمالية. مواجهة أم لهب، كانت ضرباً من المستحيل، فهل يحلّ الموت المشكلة؟

في الماضي، كانت القرية لا تحفل بموت امرأة. كانت البقرة أو الفرس اكثر اهمية، إلاّ إذا كان الرجل فقيراً وماتت زوجته، فإن تعويضها يعتبر كارثة له تشاركه فيها عواطف الناس حتى انتهاء اليوم الثالث إذ ينفض الجمع ويصبح الرجل وحيداً ويبدأ البحث عن مهرٍ لزواج جديد.

« الآن أنت يا عبد الغفور في المدينة الكبيرة »

سيد من سادتها، وهو قادر على الزواج من أية امرأة وبأي ثمن كان.

« يبدو أنك يا عبد الغفور عاجز عن الزواج ممن تحب ما دامت أم لهب تقف بالمرصاد »

قدمت له عائدة، التي لا مثيل لها في البلاد، حيوية واستسلاماً، فعادت الطمأنينة إلى قلبه بعد أن فقدها في غمرة العمل والدار. القسوة تقابلها سعادة تمنحها الصبية في ساعات الوصال الرائعة. عائدة منحته الثقة بنفسه وبرجولته. عجينة كانت تتشكل له كما يشاء. وكلما ازدادت أم لهب قوة، ازداد تعلقه بعائدة. أم لهب تتمخطر بثوبها المطرز باللؤلؤ في أرجاء الفيلا الفسيحة، وعائدة تتكوم بضعف في زاوية الفراش عارية كطفل وديع.

علمته المهنة والمسؤوليات التي أنيطت به على مرّ الأيام، أن يحسب للأمور حسابها. وكانت أم لهب في كفة وكل الخصوم والحساد في كفة. كان يعلم الكثير عن قدرة زوجه في استخدام الجواسيس من رجاله أنفسهم لمراقبة تحركاته، فاخترع لعش الحب الذي آواه وعائدة اسماً جديداً.

ـ « أرشيف العمليات الخاصة بحفظ هيبة الدولة »

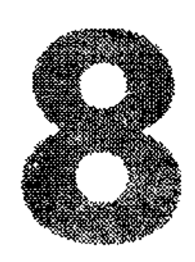
وما كان لأحد أن يجرؤ على الاقتراب من تلك الدار العربية التي كانت مهجورة بين حواري الفرافرة القديمة، فأصلحها عبد الغفور بعد أن صادرها لصالح الأمن العام، وباتت لا تلفت أنظار أحد، فقد ظنها الجيران مقفلة لصالح الآثار، وحسب كل رجل من رجال العبد الله أن غيره قد كلف بحماية أرشيف العمليات الخاصة بحفظ هيبة الدولة. وبمثل هذا الذكاء الذي استخدمه عبد الغفور العبد الله في حماية علاقاته الخاصة والتي انتهت تماماً باستسلامه الكامل لحب عائدة، جعل في الأونة الأخيرة يفكر بالتخلص من أم لهب. وتتسارع أفكاره مع نحيب الصبية تندب حظها لأنها لا تستطيع أن تخرج مع معبودها إلى النور، كما أنها لا تستطيع أن تنجب منه طفلاً يحمل سماته وخصاله ورجولته التي لا مثيل لها في الدنيا. دموع عائدة هي التي جعلت الخطة تنضج في عقله الشيطاني.

لقد تسببت الحمى المنتشرة في خلاياه بسبب الحب الذي ينمو يوماً فيوماً، تسببت في اضطرابه باتخاذ القرارات الحاسمة كشأنه في تصريف الأمور. مثلاً، ما حدث له مع جلال الحسين يدل على ذلك الاضطراب فهو لم يسحقه كما قرر في لحظة الغضب، وهو أيضاً ما زال يتردد في تنفيذ طريقته في الخلاص من أم لهب.

كان يبحث عن وسيلة يبدو فيها الحدث عادياً، وأنه حادثة طارئة تحدث في بيوت الناس.

وفي ذلك اليوم، كانت لعبة الغاز تلوح أمام شاشة عينيه الزائغتين. لقد وقر في رأيه أنها اللعبة الأكثر عقلانية من أية وسيلة أخرى. الموت سيكون طبيعياً. أم لهب كانت لا ترضى لأحد غيرها أن يدخل المطبخ، فهو مختبرها الخاص الذي تدخله كل يوم لفترة محددة ثم تخرج منه وقد حملت النصر في عينيها، كأنما تعلن عن اكتمال أنوثتها في نشيد يومي يعزف في أرجاء الدار الفسيحة، أم لهب سيدة الطعام الذي يحافظ على الحيوية والشباب.

كان تخريب أي - جهاز له علاقة بالغاز، سيحيل المطبخ إلى سعير، فإذا ما دخلت أم لهب مختبرها تحولت في لحظات إلى لهب حقيقي يضع حداً لإرهابها وتعسفها ووقوفها في وجه السعادة المنتظرة. وهكذا اكتملت الخطة، وما كان العبد الله بحاجة للرهان على ذكائه وهو الذي قضى به على الخصوم والأعداء. وهكذا كانت ساعة الصفر نقطة تحول كبرى في علاقته الساحرة بالصبية عائدة. انفجار سيقضي على أي دليل في التخريب، ولن تتأخر أجهزة الاطفاء في الاسراع لحصر الحريق في الفيلا التي سيعاد اصلاح ما فسد من مطبخها استعداداً لاستقبال الصبية العاشقة والمعشوقة إلى يوم الدين.



شيء كالحريق كان يلتهم جسد أم لهب. بل هو شيء كالجذام يأكل الجلد ونهايات الأطراف. بل هو في الحقيقة انفجارات متتالية في الروح، فكأن ما بداخل أم لهب صورة لغلاف الشمس يرسل بالحمم في كل اتجاه. وكانت أم لهب إذا وقفت في الشرفة وأطلت على الفيلا المقابلة، غلت في عروقها دماء الغضب والنقمة، وفارت في أحشائها ثورة الحسد. وتتراجع إلى الداخل لتعيد تنظيم نقمتها، لكنها لا تلبث أن تختبىء وراء شجيرة أو بين الأشجار في حديقتها، وتقوم بمراقبة ما يجري في القصر الذي انتصب أمام دارتها كعفريت شامت. باتت القضية الآن بحاجة إلى حل، كحاجة أرض شققها الجفاف إلى رذاذ يساقط عليها رحمة بعطشها. العطش كان هو الحقد.

وباتت المراقبة، بل التجسس على المرأة التي تتبادل معها التحايا كلما تقابلتا، برنامجاً يومياً تستمتع بتحقيقه. ولكن المتعة الحقيقية كانت في تضخم الحقد. تلك المرأة التي لا تمت إلى الأنوثة بصلة، هي الغريمة. دخولها وخروجها إلى القصر ومنه. السائق المهذب الذي يسرع إلى فتح باب الفولفو الخاصة، يشبه في كثير من الأحايين المرافقين لرؤوساء الدول، في طاعته وتحسبه في حركاته. والبواب المستورد من النوبة ينتصب واقفاً عند مدخل القصر احتراماً لكل قادم. أية تقاليد عريقة تشاهدها أم لهب عن بعد، ولا تستطيع أن تحقق مثلها. فالسائق الذي خصصه

زوجها لها فظ وطاعته بلهاء، والحرس الذي يعسكر أمام دارتها يتبدل كل حين فلا تشعر بأية عراقة فيه. الويل الويل

أنوثة غائبة، والحظ وافر. ثديان غائبان ووجه ضامر، وذراع مشوهة لا تتحرك إلا بصعوبة، وهي مع ذلك تتنقل كفراشة في مملكة لا حدود لقوتها وجمالها. مملكة واسعة، فالقصر كان يحتل ربع مساحة يمين الشارع الثالث في الضاحية، أي ما يعادل ثلاثة أضعاف الأرض التي كانت فيلا أم لهب تشغلها، ويقوم مهندس زراعي تخصص في هولندا بالإشراف على رعاية الأزهار النادرة والنباتات الكبيرة والصغيرة التي توزعت على ارتفاعات وانخفاضات متناغمة عبر امتداد الحديقة التي أحاطت بالقصر.

امرأة خرج لها الحظ من قمقم سحري. إذا وقفت أمام واجهة قصرها بدت كملكة حقيقية، وهي لا تستحق أن تكون جارية فيه وكانت أعمدة رخامية تشكل الواجهة، تذكّر أم لهب دوماً بما تراه أحياناً على الشاشة الصغيرة التي أغرمت بها من قصور ذات شهرة عالمية، كالبيت الأبيض الأميركي نفسه. وكثيراً ما لمحتها أم لهب تتحرك أمام الأعمدة الستة بغرور حاكم، وهي مجرد زوجة لرجل ثري لا لرجل مسؤول كبير كزوجها. ويغيظها ذلك التنوع في السيارات التي تدخل الكاراج أو تصطف كالحرس أمام السور. سيارات لامعة مختلفة الألوان متباينة المصادر، من اميركية وألمانية ويابانية وايطالية وفرنسية، وكأن الشارع المقفل في نهايته قد تحول إلى معرض لأناقة السيارات في العالم. وكثيراً ما تصادف خروج أم لهب من عنق الشارع بسيارتها المصفحة مع خروج الجارة التي كان سائقها بأدب قاتل يعطي الطريق لها، فتزداد غلياناً وهي تتبادل الابتسامة مع الجارة التي تقتلها بكياسة لا تصدق.

امرأة، وليست امرأة، لكن لقب الخانم علق بها، فكانت أم لهب نفسها إذا ذكرتها لا تستطيع أن تتخلص من ذاك الاسم. وفي سرها كانت إذا أرادت صبّ اللعنات على زوجة عثمان العابد قالت « الويل لك يا خانم » أو « إلى جهنم وبئس المصير يا خانم ». وكانت الخانم بالنسبة لأم لهب عذاباً لا يرحم وهمّاً يركبها في

الليل كعفريت لا يكل ولا يمل من التعذيب.

تساؤلات تساؤلات تطلقها أم لهب وهي تفكر دوماً بصوت مرتفع:

« لماذا نصف امرأة كهذه تملك أضعاف أضعاف ما أملك ؟ »

ثم بتأكيد لا يرحم:

« أوليست أم لهب زوجة رجل مسؤول كبيرا »

إذن فقد تمادت تلك الخانم في اظهار قوتها وثروتها. وبالرغم من تواضع مزيف فإنها تحاول أبداً أن تبرهن أن الكبرياء كجلدها لا ينفصل عنها. هتفت أم لهب ذات مرة، وكانت وحيدة تحت شجرة:

ـ « آن أوان كسر الشوكة المغرورة »

كانت أم لهب قد حاولت في أكثر من مناسبة وهي تشرب الشاي أو تتناول الغذاء مع زوجها، أن تثير موضوع الجار عثمان العابد

«سياراتهم الكثيرة تنفث الدخان على الجيران»

أو أنها تقول مهددة:

«أليس هناك من يضع حداً لغرور هؤلاء الناس؟»

فكان عبد الغفور العبد الله ينتفض في كل مرة غضباً أو ذعراً، ويهتف بكلمات تؤدي إلى معنى واحد « هذا رجل مختلف يا أم لهب ». ويشرح لها من جديد أن الجار الذي تتحدث عنه باستهتار، يمتلك أوسع شبكة فنادق ومطاعم ومراكز سياحية في البلاد وفي خارجها أيضاً، ويقول لزوجه المتأففة أن اسم عثمان العابد يدخل دوماً في سجل أهم المدعوين إلى الحفلات الرسمية، ولا يمكن لأحد أن يمارس عليه أي ضغط. وبالرغم من أن التزاور بين الجارين كان نادراً، إلاّ أن الاحترام ظلّ متبادلاً بين العائلتين، وكان في ذروته بين السيدتين.

في آخر لقاء حدث بين الجارتين، وكان يوم دعت الخانم إلى حفل كبير أقيم بمناسبة عيد ميلادها، تساءلت أم لهب بهدوء « هل نجحت الخانم حقاً في اغتصاب لقبها بالمال وحده؟ ». وهكذا تغلب اشتعال الأنوار في الدار وفي الحدائق، على الحقد المتنامي في صدر أم لهب. كانت الأزهار تتألق تحت سلطة النور كمجوهرات

حقيقية، واصطف طاقم من الحراس والخدم القادمين من أرقى الفنادق في البلاد، للترحيب بزوار الحفل من النساء. وكانت أم لهب من أكثر الضيوف تكريماً واحتراماً من بين عشرات السيدات اللواتي جئن بالأناقة والحلي النادرة من مراكز المال والسلطة في المدينة. لقد أبدت الخانم اهتماماً خاصاً بجارتها فخصّتها بزمن أطول في الوقوف إلى جانبها تسألها في فرقة الموشحات التي أحضرت من أجل الحفل وتستفتيها رأيها في الموازنة بين لندن وباريس، وتعرض عليها أن تكون ضيفة الشرف عندها في شقتها الخاصة في الشارع الخامس بنيويورك، وقد علمت أنها لم تزر بعد أمريكا ولم تستمتع بالميوزيكهول في بردواي، ولم تلق نظرة عبر المكبر على حي هارلم الزنجي، وعندما حدثتها عن قرية جرينتش التي باتت الجانب الباريسي الإباحي من نيويورك المشغولة بالاسهم والسندات المالية، كذبت أم لهب وهي تصرح بسعادتها في رفقة الخانم. كانت الأمور تجري بسرعة، فأم لهب تنظر إلى الغريمة التي بدت كامبراطورة صغيرة، مغتصبة لكل ما حصلت عليه، وهتفت لنفسها:

ـ «السلطة أقوى من المال، لذا فالخانم لا تستحق ما تناله»

ووقر في أعماق أم لهب أن تلك الحفلة أقيمت أصلاً من أجل لعبة التحدي الذي تستقبله بروح رياضية تحمل كل دواعي الانتقام الذي سيصبح برنامج أم لهب اليومي.

عيد ميلاد مزيف. هذا ما يجب الاعتراف به. ومجموعة الكريستال التي تنزل من الأسقف الذهبية، لن يكون نورها الخاطف للأبصار سوى اضاءة لحقيقة اكتشفتها أم لهب. الخانم تريد أن تقلع عيون الحضور ببريق جواهرها النادرة، وقد خرجت من بين ثنيات، الشعر المستعار وعطفة الذقن الخارجة عن طاعة عنق قصير لا يُرى بفعل عقد الياقوت الأسر. حتى الخلخال المحيط برسغ القدم اليسرى كان يبرق عند كل خطوة تتقدم بها الخانم بين النسوة اللواتي سحرهن كل شيء. وكانت المضيفة تتحرك بين الجموع برشاقة لا تليق بكهولتها، وتوزع الابتسامات والكلمات المرحبة كأنما تلقت دورة في البروتوكول الذي لا يتقنه سوى أفراد الأسر

العريقة المنحدرة من سلالات ملكية. وبالرغم من سيل الهدايا الذي غطى على اللون الأرجواني للمخمل الذي انسدل على طاولة الجوز في مدخل الصالون الكبير، فإن الخانم لم تترك مدعوة إلاّ ووزعت عليها هدية تؤرخ لتلك المناسبة التاريخية. وهكذا باتت العملة الذهبية التي سُكّت خصيصاً لهذه الذكرى، إذ كان بروفيل رأس الخانم على وجه وعلى الآخر نفرت جملة تليق بالملكات وحسب، تعيد أم لهب قراءتها كلما خلت لنفسها تتأمل الميدالية بتفحص وتزداد حقداً.

« المجد والحياة لمائة عام »

فتهتف أم لهب بحرقة

« الموت لك يا نصف امرأة »

وقد جربت ذات يوم أن تحك العملة الذهبية البراقة بحجر الخفّان في محاولة لإخفاء معالم الخانم أو إزالة جملة التمجيد، لكنها لم تفلح، كما أنها جربت رميها على الأرض بقسوة ظناً منها ستؤذي الخانم نفسها فظلت الميدالية على رونقها بريقاً وزخرفة. وهكذا فكرت أم لهب بالرصاصة الطائشة.

جاءتها الفكرة ليلاً، وكانت وحيدة على الشرفة الشمالية المطلة على جناح النوم لقصر الخانم. كانت آثار حفل عيد الميلاد كالابر تتنقل من جلدها إلى عينيها، توقظ فيها شراسة أفكار هائمة ضائعة، لكنها ما لبثت أن فكرت بالرصاصة الطائشة. كانت مجموعة زوجها من بنادق الصيد تتوزع على جدران الممرات وواجهة الصالة المخصصة للضيوف، وكانت مجموعة مختارة من أفضل البنادق تلقاها العبد الله في مناسبات مختلفة، بعد أن شاعت بين المسؤولين عادة تهادي الأسلحة الخفيفة كالتي تستخدم في الصيد أو الخناجر والسيوف العربية والطبنجات الفضية التي فقدت فعاليتها. كان على أم لهب أن تختار بندقية تبدأ بها مغامرتها، وهي التي لم تمس واحدة منها من قبل. وهكذا قررت أن تمارس هواية الصيد في حديقة الفيلا مما أثار عجب زوجها ودهشته، لكنه بعد حين لم يعد يراقبها وهي تصوب على هدف من زجاج قرب الجدار المرتفع أو أنها تصوب على طيور عابرة في السماء. وبالرغم من فزع أهل الحي في بداية الطلقات، ولكن من كان يجرؤ على

الاحتجاج على أمر يحدث في مملكة عبد الغفور العبد الله؟

كانت (ملاحت) قبل أن تصبح أم لهب، الصبية التي تعرفها التلال والوديان فارسة تشبه أبطال القصص الشعبية. كانت تقطع أملاك العائلة على حصانها الأبيض الذي حصل عليه الوالد من شيخ شمر، لكنها لم تفكر مرة في حمل بندقية لاصطياد حيوان أو طير كما كانت العادة في تلك المناطق. وكثيراً ما كانت، بالرغم من رباطة جاشها وقوة أعصابها التي اشتهرت بها، تحتج على قتل الحجل والسمّان والأرانب البرية، وتعلن عن تبرمها المطلق من مشاهد الدم التي إن دلّت على شيء فإنما تدل على وحشية الانسان، مما جعل والدها يخشى على الصبية تأثرها بأفكار الأستاذ محمد، مدرس اللغة العربية الذي كان يأتي من المدينة مرة في الأسبوع لمساعدتها على استذكار الشعر الجاهلي، والذي كانت تروّج عنه شائعات مفادها أن الاستاذ يؤمن بأفكار اشتراكية. وقد اخترع الوالد حجة في طرد الأستاذ كي يبقي ابنته نقية. ومع أن الصبية آنذاك كانت تبكي لمرض ابن صغير لفلاح من أتباع مملكة الزيتون، فإنها ما كانت لتتورع عن ضرب ذلك الفلاح بالعصا إذا ما أهمل في عمله. ولذا توقع لها والدها أن تكون الوريثة الحقيقية له بعد هرب ابنه البكر إلى فرنسا وبقائه فيها إلى أن اختفت أخباره. وكان حلم الوالد استمرار عظمة مملكة الزيتون بأشجارها التي لا تحصى ومعاصرها الحجرية، لكن الأنظمة الجديدة كسرت حلم الرجل.

ثم تأكدت سلطة الصبية بعد ذلك، بأن تزوجت من الرجل الذي ستتجاوز صلاحياته أمور الزراعة وكذلك الصناعة والتجارة، لتنجح في إحياء أحلام العائلة في السيطرة على كل ما حولها، الاّ أن الخانم ظهرت في الأفق فجأة لتقول إنها هي الأقوى، فأم لهب على سبيل المثال لم تتوصل بعد إلى درجة سك الميداليات الخاصة بعيد ميلادها أو بأية ذكرى او مناسبة تخصها.

واستطاعت أم لهب في نهاية أسبوعها الأول أن تضرج سنونواً بدمائه وقد أصابته طلقة البندقية، نظرت إلى الريش المتناثر بانتصار وهتفت:

ـ « المرة القادمة سيكون دورك يا خانم »

وكانت الخطة التي رسمتها أم لهب بسيطة وتحقق الهدف بسهولة لا تثير أي شك. ستصوب فوهة بندقية الصيد الروسية المرصعة بالفضة نحو الدار المقابلة بحثاً عن طائر تاه منها. ستنطلق الرصاصة القاتلة، ومن الذي سيتهم أم لهب زوجة عبد الغفور العبد الله؟

في الأحوال كلها، فإن العبد الله سيعتذر لعثمان العابد وسيحضر مع المسؤولين في المدينة مأتم شهيدة القضاء والقدر. وهكذا كان على أم لهب أن تحتمي بأغصان شجرة الليمون الكثيفة وتحكم التصويب بعد أن تدربت ما فيه الكفاية. ستظهر الخانم بعد لحظات كعادتها تتفقد أزهارها النادرة في الصباح المبكر. وتنطلق الرصاصة لتضع حداً للنار التي تشتعل بلا رحمة في الصدر، وتخرّ الخانم على الأرض دون ريش يتطاير. وستقوم بعد ذلك أم لهب بنفسها بالامساك بسماعة الهاتف طالبة سيارة الاسعاف التي ستحضر مسرعة لانقاذ حياة الجارة من رصاصة طائشة كانت أصلاً تبحث عن طير شارد.



كانت الضاحية مغطاة بضباب خفيف ما لبث أن انقشع بهدوء مع حزم الشمس المخترقة حجاب الرطوبة، ومن ثم سمع صوت طلقات نارية. صمتٌ، ثم دوت بعد قليل أصوات سيارة الاسعاف التي كانت تطوي الطرقات بسرعة مجنونة.

توجهت الانظار منذ البداية نحو فيلا عبد الغفور العبد الله التي شهدت اطلاق النار منها لفترة من الزمن، ثم ما لبث سكان الضاحية أن حسبوا الأمر كعادته، لكن اقتراب أبواق الاسعاف أثار الريبة فأطلّ الناس من شرفات المنازل أو الحدائق، وقد شاع في الجو إحساس بفجيعة ما قد وقعت في الجوار. كان الفضول يتنامى، ولكنه بات قلقاً عندما سكتت الأبواق أمام قصر عثمان العابد. توقفت سيارة الاسعاف، ثم ما لبث أربعة رجال بملابسهم البيض أن تدفقوا باندفاع واثنان منهما يحملان نقالة المشفى، ويخترق الجميع بوابة القصر التي فتحت لهم بين دهشة البواب ورفضه في البداية وكأنه لم يعلم بما حدث في الداخل.

وقد ظلّ جهاز اللاسلكي النقال الذي طلبت به أم لهب الاسعاف السريع بيدها، بينما البندقية في الأخرى، وعيناها تراقبان من خلال الأغصان ما يجري في

الطرف الآخر. كانت تتوقع أن تسمع صراخاً أو نعيباً، لكن الصمت ظلّ يلف قصر العابد إلى أن حضر الاسعاف. كان القلق قد استبد بها، وتمنت لو توجهت بنفسها إلى هناك لتستطلع الموقف، لكن قلقها تحول إلى خيبة قاتلة وهي ترى رجال الاسعاف يعودون إلى سيارتهم بالنقالة فارغة. بعد قليل ظهرت الخانم تمشي بخيلاء قاطعة الممر إلى الشرفة العريضة ثم ما لبثت أن لوحت بذراعها لرجال الاسعاف مودعة. انتهى المشهد، فسقط جهاز اللاسلكي من يد أم لهب، تبعه صوت ارتطام البندقية بجذع الشجرة، وتقشرت عينا أم لهب عن لهب الحقد الذي لا يسكته ماء أو دمع، وكان الدمع منحبساً فجرى نقطة نقطة وكان مالحاً فبصقته أم لهب.

كانت الخانم بالقرب من حوض الياسمين البحري تنظر إليه بإعجاب وقد اشرأبت زهراته نحوها كرضيع ينتظر حليبه. صباح لا بد أن يكون جيلاً، فإرادة الخانم كانت أقوى من كل متاعبها، وفجأة اخترق سمعها أزيز صارخ كـرب دبابير هائج، فارتمت الخانم أرضاً لهول ما مرّ بقربها. بعد أقل من ثانية من الفزع سمعت طلقاً آخر فعلمت أن خطراً ما قد أحدق بها فأحست بخوف حقيقي يشابه ذلك الشعور الذي انتابها وهي تدخل المشفى لأول مرة.

كان أول من شاهد الحادثة، أم نبيل مدبرة المنزل، فهرعت مذعورة لتحتضن سيدتها المعطوف وتضمها إلى صدرها لتهدهدها كطفلة وهي تتمتم بقل أعوذ برب الناس. وتمسح على رأسها بكف رقيق وقد بدأت الخانم تستعيد أنفاسها.

فترة من زمن مشوش مرت على الخانم قبل أن تبدو لها صورة وجه أم نبيل واضحة. نظرت إليها بتساؤل صامت، وكان جواب مدبرة المنزل مختصراً «الحمد لله لم يحدث مكروه». كانت الاثنتان تجهلان تماماً ما حدث، ولن يتحدث أحد بعد ذلك عن الأمر. وبالرغم من حضور رجال الاسعاف الذين لم يستدعهم أحد من أهل القصر، فإن الحادثة باتت منسية. كان ساعدا أم نبيل، وهما يحيطان بها كأم حقيقية لم تعرفها الخانم قط، قد أثارتا مشاعر مبهمة في النفس، وعندما تأكدت

من سلامتها وأن خطراً ما لم يلحق بها ظلت مسندة رأسها على الصدر الحنون.

كانت مدبرة المنزل التي مضى عليها الآن أكثر من عام على خدمتها، فتية بالرغم من أنها تجاوزت الخمسين من عمرها. ولقد أحبت فيها الخانم صمتها وإتقانها للعمل، فلقد كانت سيدة حقيقية، كأنما ولدت أصلاً في قصر عريق التقاليد، وهي الفقيرة التي تساعد ابنها الوحيد على مواجهة الحياة. كان لأم نبيل ذوق متميز في توجيه التعاليم لاعداد الطعام، كذلك في تكوين مائدة أشبه بلوحة فنية، فكثيراً ما لاحظت الخانم انسجام لون المفرش مع أطباق الفاكهة والأزهار، فيا أثنت عليها مرة بشكل مباشر، لأن الدهشة كانت تأخذ الخانم فتلجمها عن الاطراء. وهي إذ تشرف على أعمال تنظيف التحف الثنية والثريات التشيكية الهائلة والسجاد الأثري واللوحات الزيتية النادرة، تبدو الخانم وكأنها أجرت دورة مكثفة في واحد من متاحف العالم الكبرى، وقد سألتها ذات مرة:

ـ « هل سافرت إلى الخارج مرة؟ »

فنظرت أم نبيل تتساءل بسذاجة:

ـ « الخارج! تقصدين غادرت هذه البلاد؟ هذا لم يحدث أبداً يا خانم »

فتقول الخانم لنفسها:

ـ « هل يعقل أن تكون هذه المرأة البسيطة قد تعلمت كل هذا لوحدها؟ »

أحست الخانم بالدفء الذي يشبه الحليب الساخن يتنزل عليها كالماء الذي يحيط بها في حمام الجاكوزي. كان صدر أم نبيل ما زال يلتصق بها، وكان الثديان مكتنزين وكأنهما النبع الذي يسيل منه الحنان يغطي العالم. تذكرت يوم خرجت من المشفى لأول مرة دون ثدي وقد استؤصل منها لمرض خبيث، وفي المرة الثانية باتت الخانم دون صدر وقد ذهب الثدي الأخر ضحية مبضع الجراح. هتفت الخانم لنفسها وهي ما زالت تتلمس الحنان:

ـ « يا إلهي، هل يمكن لهذه الفقيرة وهي في عمري أو أكثر أن تكون محتفظة بأنوثتها حتى الآن؟ »

ثم فكرت وهي تشرب الشاي الذي أعدته أم نبيل بنفسها:

ـ « أي عدل سماوي هذا! أفقد كل شيء وأنا الأغنى في كل البلاد، وتملك هي كل شيء . » كانت تتأملها وهي ما زالت طفلة بين أحضانها، ثم امتدت كفها بشكل غريزي لتتحسس شعر أم نبيل الفاحم الناعم الغزير. وكان العلاج بالأشعة الذي طبق على الخانم لفترة طويلة قد أسقط شعرها فكانت لها مجموعة من شعور مستعارة تغطي رأسها بإتقان فلا يلحظ أحد ما هي فيه، إلاّ أن الألم اليومي وهي وحيدة تجلس أمام المرآة تمسك بمشط العاج الذي ما عادت له فائدة، لا ينقطع.

ـ « أهو التحدي الأكبر لوجودي؟ »

هكذا تساءلت وهي تتذكر الذراعين القويتين البضتين تهصرانها بمودة وعطف، بينما جلدها يضمر وينكمش يوماً فيوماً، وقد باتت الأثواب حتى الحريرية منها تسبب شيئاً من الألم باحتكاكها بالجلد المريض.

قالت الخانم لنفسها وهي تنظر إلى وجه أم نبيل المستدير كرغيف بلدي طازج:

ـ « هي تأكل كما تشاه وما تحب، ومحرومة أنا من كثير مما أحب »

ـ هي تضج بحيوية بركان، وابتسامتها لا تفارق الخدين المتوردين. لخطواتها على البلاط المرمري وقع الثقة وكأنها صاحبة المكان. وقالت الخانم وهي تحسّ بذبول قرنفلة أمامها:

ـ « وأنت تعيشين على التقنين، فما فائدة كل ما تملكين »

في تلك اللحظات التي تسرب فيها دفء أم نبيل إلى جسدها البارد تفجر كره عجيب في أبعاد روحها المعذبة. كأنما كرة انفجرت في أعماقها فتناثرت المحتويات في أجواء داخلها. العدل المفقود والحق الضائع ثم كانت النتيجة: كرهٌ لتلك الحيوية تتمتع بها إنسانة فقيرة تقوم بالخدمة كي تعيش. كانت روحها تتمزق كلوح زجاج لتكسّره وقعٌ يثقب السمع، فما عاد أزيز الدبابير الذي مرق بالقرب منها منذ قليل منذراً بالخطر، ليشكل أي خوف عندها إلى جانب ما أحست به فجأة تجاه تلك المرأة.

من قبل، كان الإعجاب هو ما تحمله في نفسها تلك المرأة. والآن بدأت

المراقبة، بل هي المعاينة عن بعد. بعد أن عادت الحياة الطبيعية الى القصر وسارت الأمور كعادتها دون أن يعلق أحد على ما حدث وكأن الرصاصات الثلاث التي خدشت إحداها حوض المرمر الأخضر الذي ينتصب على طرف الشرفة تنمو فيه نبتة صبار نادرة أحضرها رب الدار من المكسيك، كأن تلك الرصاصات لم تقتحم سكينة الدار. جعلت الخانم تتابع بعينيها مدبرة المنزل فتحس كأنها تراها لأول مرة. كانت أم نبيل تتحرك كصبية مقبلة على الحياة برغائب لا حدود لها. قالت الخانم لنفسها:

ـ «هل تتعمد هذه المرأة أن تتحداني بحيويتها»

ـ سألتها فجأة:

ـ «هل تحبين الحياة؟»

فنظرت المرأة بدهشة إلى الخانم، ثم قالت باختصار وكأنها تعتذر بانشغالها في العمل:

«دون شك يا خانم»

هل تتعمد تلك المرأة حقاً، بإظهار قدراتها الجسدية، أن تقهر الضعف الذي تعاني منه الخانم وظلت فيه منذ عشر سنوات هي أحلى سنوات العمر؟

هتفت بصوت مخنوق:

«هذا أمر ليس فيه عدل»

وكان عثمان العابد قد بذل كل جهده لإنقاذ زوجته. من مشفى في باريس إلى آخر في واشنطن وثالث في سويسرا، كانت الخانم تتنقل، تحفّها العناية والحسابات المفتوحة في المصارف. لم يشعرها رجلها لحظة أنها نسيت أنوثتها على الأسرّة البيض أو في غرف العمليات. كانت شكوك الخانم في البداية قاسية. إذ أنها عقب أية عملية أجريت لها كانت تنظر بعمق في عيني عثمانها تحاول أن تسبر مشاعره، فلا تجد سوى التعاطف والحب. كان صادق العواطف منذ أن عرفته، فيثار جنونها وتصرخ في وحدتها

«هذا أمر ليس فيه عدل»

وستذهب بها الظنون ذات مرة إلى اتهامه في سرّها أنه رجل منافق بل ومنافق كبير، لأنه قادر على أن يحصل على أجمل نساء العالم بإشارة من اصبعه، فما الذي يجعله باقياً على حبه لها وقد جف عودها! ثم تعود عن وساوسها وتتأمله متفحصة وهو يشرع في التغزل بها وهما على مائدة العشاء كعاشقين، تفصل بينهما شموع يتراقص لهبها مع نسمات الريح على الشرفة. لقد أقسمت مرة أنها ستقضي عليه لو أنها اكتشفت خيانته لها، ثم أقلعت عن الفكرة وكانت تقول لنفسها دوماً:

ـ «أستحق أن أكون محبوبة بالرغم من كل شيء»

واليوم، تأملت كل شيء يحيط بها، كل ما سبق وماسيأتي، وفي لحظات رمادية لصقت بها ذراتها الكالحة فما عادت ترى جمالاً في زهرة أو شجرة أو مرمر أو عشب أخضر، في ذلك اليوم باتت تلك المرأة هي الضد الذي يثير في نفسها عطفها على نفسها، وهي اللهب الذي يشعل في الأعماق الكره لكل امرأة كاملة. ليس عدلاً ليس عدلاً..

هل يمكن أن أموت أنا، وأن تتمتع هي بالحياة؟ أي منطق هذا. الويل الويل الويل. وبعد طعام الغداء وحيدة كانت تفكر في المرأة الحيوية تتحرك أمام عينيها متحدية انهزامها البطيء أمام الحياة. حنونة تقتلها بنظرات الحنان كلما مرت بقربها. الحنان بات صمغاً يلصق بروحها. وقالت الخانم بصوت مسموع وهي تقف في غرفة النوم نصف عارية أمام المرآة؟

ـ «لقد تحولت هذه المرأة إلى مسلّة تخزني في كل نقطة من جسدي»

ـ وكانت تفكر كالشيطان، بينما تطلب من أم نبيل أن تبقى في القصر كعادتها يوم يسافر عثمانها:

ـ «هل يمكن لهذه الليلة أن تكون فاصلاً بين العذاب والراحة؟»

وكانت الأفكار الجهنمية تتسلقها كالعلق اللزج، عندما أومأت أم نبيل موافقة بوجهها السمح، فيزداد غضب الخانم إلى درجة الانفجار.

قصر عثمان العابد عرضة لهجوم اللصوص أبداً وصاحب الدار مسافر، والأولاد في أمريكا غائبون، والحارس غاف أو أنه ما زال يتابع فيلم الفيديو المثير

الذي أعطته الخانم له لتمضية السهرة، وأما أجهزة المراقبة الالكترونية فقد أصابها عطل مفاجىء لا يُعرف له سبب. سيدخل لص محترف لكنه شرس ومسلح يهون عنده القتل أمام الحصول على واحدة من التحف الفنية التي لا تقدر بثمن. تظهر أم نبيل أمامه فجأة وقد أحست بحركة مريبة في الدار، ستدافع حتماً عن أولياء نعمتها، فيطعنها اللص بخنجر أو يطرحها أرضاً بقبضة مسدسه الثقيلة أو أنه سيقضي عليها خنقاً في فراشها.

وكان السيناريو قد اكتمل في مخيلة الخانم، فارتسمت ابتسامة على وجهها لتؤمن أن الجمال ما زال باقياً وأن المرآة صادقة. واستقرت الراحة في الصدر، لكنها كانت قصيرة، فلقد فكرت الخانم بحالها بعد غياب تلك المرأة عن الدار وهي التي تدير فيه كل شيء.

ـ « هل باتت المرأة عنصراً مهماً من عناصر استمرار الحياة الوادعة المطمئنة؟ »

هل يمكن للخانم أن تتسبب في إتعاس نفسها بنفسها، فقامت في الليل وقد تجاوز منتصفه لتطل على الغريمة من شق الباب الذي دفعته بحرص لتجد المرأة غارقة في نوم عميق، وكأنها لم تعان ذات يوم من قلق أو خوف. واشتعل الحقد من جديد، واستعاد سيناريو القتل شريطه، وهكذا كان الأمر



ليلة عجيبة مرت بها. في الربع الأخير منها، أحست أم نبيل وكأن وقع أقدام يدب في غرفتها، وعندما فتحت عينيها وجدت شبحاً يقف في غرفتها. أضاء النور الموقف فإذ بالخانم بلحمها ودمها تقف بالقرب من سريرها. فجأة همت عليها الخانم بقبلة طبعتها على خدها، لتنسحب بعد ذلك دون أن تقول كلمة واحدة. وبالرغم من أن مثل هذا الأمر لم يحدث من قبل، مما يجعل حادثة كهذه تثير في النفس هيجاناً، لكن همها كان أكبر.

في الأونة الأخيرة ازداد انشغالها بابنها حبيبها الذي لا حبّ بعده. ذلك الشاب الوديع الذي فتح عينيه ونما وشبّ في حضنها، فكانت له كل شيء، وكان لها الحياة. هو الزوج والابن وهو الفرح. وبالرغم من جمالها الذي لاحقه الرجال وشبابها الذي كاد أن يصبح لعنة، فإنها حمت نفسها من أجل الطفل الذي لم تترك مهنة إلّا وخاضت غمار متاعبها من أجل إعالة الطفل اليتيم وتنشئته وتعليمه وتأمين مستقبل لائق له. عملت في الريجي تلفّ السجائر، وغسلت الصحون في مطعم وقع صاحبه وعماله في حبها فهربت، ثم اختاروها طباخة في نادي حلب العائلي، فأثنى الجميع على صحون المقبلات التي تفننت في إعدادها. وبات نبيل فتى فزاد

المصروف، فعملت فترة على خط التهريب، فاشتهرت على الحدود اللبنانية وما عاد بعض رجال الجمارك يكتفون بالعطايا التي كان عليها أن تقدمها لهم، فرفضت أن يلمسها أحد، وانتقلت إلى مهنة أخرى. وفي بيوت كثيرة رعت أطفالاً وخدمت عجائز وحيدات، واستمرت في عملها كخادمة في معهد دار المعلمات لسنوات قليلة، وكانت ممرضة عند طبيب شبق تركته بعد أيام. وتقلبت في أعمال كثيرة، وعندما استقر بها الحال في قصر عثمان العابد، كان نبيل وحيدها الوديع قد استقر مع عروسه سعيداً.

أكثر من عشرين سنة كي تؤمن له داراً صغيرة فرشتها من الابرة إلى التلفزيون وقالت لنجاة عروسه وهي ترش زهرات الفلّ أمام أقدامها قبل دخول الدار:

« ابني نبيل أمانة بين يديك. قضيت عمري كله من أجل أن أوفر له السعادة، فتابعي يا ابنتي الطريق ».

ثم خرجت تخفي دموع الفرح التي تمازجت مع حسرة الانفصال عن الحبيب. الآن ستواجه الوحدة دون رفيق العمر، ولكن لا بأس فولدها يتألق بسعادته.

كان وحيدها الذي أنهى دراسته الجامعية في كلية التجارة، قد بات محاسباً في شركة التعمير، وهناك تعرف بنجاة التي كان يحدث أمه عنها بإعجاب، فأحبتها هي أيضاً. قال إنه يريد أن يشارك نجاة حياته، فأخفت قلقها الغريزي على وحيدها بموافقة سريعة، وأخرجت له كل ما ادخرته في عمرها المتعب لتضعه أمامه.

« هذا كل ما أملك يا ولدي، فليحفظك الله ولتدم لك السعادة »

بات له عش يجمع زوجين محبين شابين، وعادت هي إلى دارها العتيقة في الجلّوم، والتي ما زالت تسدد ايجارها الشهري بانتظام منذ أن كانت تجمعها مع الزوج الذي غاب أيام لا تنسى. لقد أحست في ذلك اليوم الذي طارت فيه

الزغاريد كالفراشات الربيعية، أنها أدت واجبها تجاه الزوج المسكين وقد رحل مبكراً، وهي ما زالت تحمل بين احشائها ثمرة حب لم يدم طويلاً.

« اسميه نبيل على اسم أبيه »

هكذا قالت للقابلة والجيران الذين ما زالوا يحيطونها بالمحبة الصافية. تكريماً لذكرى الرجل الذي لم يمهله الموت لتحقيق أحلام بسيطة كان يتحدث عنها بايجاز، احتفظت باسمه كي يستمر في خلفه. وكان نبيل الصغير قد قدم إلى الحياة بمشقة وقد التف الحبل السري على رقبته يكاد يودي بحياته. الفقر الفقر كان مخيماً بألوانه الباهتة على أرملة لا تملك القدرة على دخول مشفى، فالراحل كان عاملاً في متجر صغير رفض صاحبه أن يمنحها التعويض عن كارثة البرميل الذي وقع على زوجها. لكن اليأس لم يعرف طريقه إلى قلبها، فقررت أن تدفع بالوليد نحو حياة لا يشعر فيها بأي يتم أو فقر أو حاجة.

كانت المخاطر التي أحاطت بها، من غواية أو محاولة اغتصاب أو إكراه او اضطهاد، لا تؤثر على استمرارها في تأمين حياة لائقة بالصغير الذي كان ينمو ويترعرع لا ينقصه شيء. طعام وملابس، ألعاب ومدارس خاصة، وكان نبيل أول شاب في حي قديم هو الجلوم، يمتلك جهازاً للكومبيوتر ويلبس بدلة جينز كاملة. وكان وديعاً كأبيه، وهكذا لم تنفك لحظة عن الخوف عليه. وعندما أعلن عن حبه لنجاة استشعرت الأم الأمان لاسم كنتها، فقد تفاءلت به واعتبرت أن نجاة ستكون التميمة التي تحمي وحيدها الغالي، واحتفظت في صدر غرفتها وفي محفظتها بصور مشتركة تجمع بين نبيل ونجاة. قالت لنفسها بسعادة:

ـ « الله يحبني ويحبه فارسل اليه نجاة »

إلا أن الأمور لن تمشي باليسر الذي ابتدأت به. ابتدأ القلق خفيفاً يوم علمت أن العروس أحضرت والدها كي يعيش معها في عش الزوجية، إلا ان ذلك القلق سرعان ما بات بسيطاً إذ ترى الوالد بأم عينها مقعداً كتمثال على كرسي متحرك. كان وحيداً لا معين له فغفرت لنجاة ما فعلت. وقالت لنفسها تلك حسنة

تكتب لوحيدي إنه رعى حماه العاجز، والله لا يضيع أجر المحسنين. كان الرجل لا يتكلم وفي عينيه حزن امتزج بالشكر عندما رأى أم نبيل تسلم عليه وتتمنى له الصحة.

ثم عاد القلق أشد، إذ عرفت الأم أن القسم الأكبر من دخل الكنة يذهب من أجل دواء أبيها، فقالت لنفسها بامتعاض أنها لن تعترض مادام ابنها لم يبدِ استياء لكن القلق بات غضباً بل ثورة حقيقية ستتحول بعد حين إلى نقمة هائلة. قال نبيل في معرض حديثه له إنه يعاني الحياة مع نجاة.

وهي تستمع إلى الأنين الرقيق الذي صُدر عن وحيدها، فرأت غلالة عذاب تلفح عينيه، قررت أن تدافع عن حبها الوحيد والجميل والذي لم يبق لها في الدنيا سواه. تحول الحنان العذب في روحها إلى أنياب حادة تبحث عن فريسة. قال نبيل في زيارة ليلية مفاجئة لدار الجلوم العتيقة:

« لم تعد نجاة كما كانت يا أمي »

ثم حاول أن يتحدث عن عمله وتقدمه في تطوير جهاز المحاسبة في الشركة، لكنها استوقفته بحزم لم تستخدمه معه من قبل. قررت أن تستجوبه لتشفي غليلها.

ـ « كانت أياماً عذبة، والآن بات كل شيء بارداً يا أمي »

الكلمات جافة، والقهوة ما عدنا نشربها في الفراش ونتحدث عن برنامج اليوم. لم تعد هناك موسيقا في بيتنا. باتت نجاة عصبية لا تحتمل إشارة أو ملاحظة أو رأياً يجانب معتقداً راسخاً في ذهنها.

ـ « الويل لك يا نجاة »

ـ وهي الآن كثيرة الشكوى من الحياة، وتقول إنها تعب لا سعادة، بالرغم من أنها هي التي تشرف بنفسها على المصروف، فدخله بين يديها تفعل به ما تريد. صحيح أنها غير مسرفة، لكنها لا تقنع الآن بشيء. في البداية كانت ترضى بغرفة صغيرة ورغيف خبز تصنعه بيدها، ثم بدأ التأفف.

ـ « الويل لك يا نجاة »

ـ لقد بدأت التعاسة يا أمي. ابنك لا يعرف لحظة سعادة...

ـ « الويل . الويل »

ـ هي تهتم بوالدها. لا يضايقني الأمر فالرجل مريض ينزوي بصحته في ركن لا يسبب أي ازعاج، لكنني أتمنى أن تهتم بي بنصف ما تفعل معه. لقد تغيرت فجاة، وابتدأ الحلم بالانهيار. هل يمكن أن نواجه البؤس مبكرين. صاح نبيل:

ـ « أريد حلاً يا أمي »

وكانت تردد بداخلها

ـ « الويل . الويل لك يا نجاة »

وهكذا سيطر نداء حبيبها على كل ذرة من وجودها. وكانت تزداد وحشية إذ تنفرد بنفسها في الدار العتيقة. تمشي كلبؤة مجروحة في المربع، وتطلّ من النافذة على مئذنة الجامع فلا تجد الطمأنينة. وكان صوت المؤذن الجميل في الفجر والذي طالما أرسل في قلبها السلام، قد تحول إلى مجرد نعي لوجودها في هذه الدنيا. تقوم إلى ألعاب وحيدها تصفّها على الأرض كفرقة تنتظر الأوامر، ثم تعيدها إلى الخزانة الأمينة على الذكريات. تخرج ملابس الطفولة التي ما زالت مطوية ومرتبة على رف وقد دُسّت بينها قطع الصابون المطيّب، وتشمسّها قطعة قطعة، بلوعة لا تعرف البكاء. تقبّل مجموعة صوره، وتحدق في ملامح الرضيع والطفل والفتى والرجل الجميل. ثم إنها تعدّ كأسين من الشاي بالنعناع الذي يحبه، تضع واحدة أمامها والثانية على مكتبه الذي كان يدرس عليه. تتأمل الكأسين ورائحة النعناع تسيطر على الجو بالرغم من السقف الخشبي المرتفع. تردد بأسى مشوب بالخيبة

ـ « أريد أن أضع حداً لتعاسة حبيبي »

لم يكن لها رفيقة عمر تلجأ إليها في المصاعب، وجارتها القريبة أصيبت بالصمم والأخرى مشغولة بابنيها المعتقلين، وبالرغم من أن الخانم بدت لها أحياناً صديقة أكثر منها ربة عمل، فإنها تحاشت، كما كانت من قبل دوماً، أن تشرك أحداً له علاقة بعملها في مشاكلها. طالما كرهت الشفقة، وهي الآن تكره التعسف، بل هي تصمم على وضع حد لتصرفات الزوجة التي لم تف بالعهد في استكمال مشوار السعادة لحبيب القلب والروح. لقد كان القرار ابن الوحدة والليل.

في الماضي لم تكن لتفكر في أن وحيدها سيكون له شريك غيرها، وهكذا لم يكن لخيالها أن يتصور زوجة له. هل يمكن لهذا الفتى الرقيق الممتلىء بحساسية الزهور أن يعيش مع امرأة غريبة عنه لا تعرف متى يكون تنفسه متعثراً فتغلي له البابونج يستنشقه، أو متى تدلّك رقبته وكتفيه بعد تعب القراءة والدراسة. لكنها لهفة الشباب التي تجلت في تعلقه بزميلة العمل، جعلتها توافق. كانت حياته قد انقلبت رأساً على عقب في الأيام الأولى فخضعت الأم لذاك الانقلاب ولتوسل الفتى الرقيق أن تساعده على جمع شمل محبين. هل ارتكبت في قبولها حماقة؟

قررت أم نبيل في البداية، وكان ذلك يوم احتضنت الخاتم بين ذراعيها فتدفق الحنان إلى صدرها، كأنما تحتضن وحيدها نفسه، قررت بعيداً عن الكره الذي حاول أن يحتل قلبها أن تفاتح كنتها. قالت لا بأس من حوار يمكن أن يوصلنا إلى الأفضل. ستحكي لها قصة كفاح طويل كانت نتيجته شاباً ذكياً طيباً رقيقاًلا يريد من الحياة سوى السعادة. ستفصل لها كيف عاش اليتيم نبتة تسقيها الرقة والحب والعطاء. حياة أيامها كثمرة الرمان، عملت على رصف حباتها واحدة واحدة حتى أصبحت بمثل ذلك الإعجاز في التناسق والانسجام.

قررت أن يكون المعروف سبيلاً لترتيب الاضطراب الذي هجم على وحيدها، لكنها ما لبثت أن تصورت ردود فعل الزوجة. هل ستستمع إليها وتفهم، أم أنها ستشيح بوجهها عنها؟ تخيلت نجاة امرأة حمقاء تثور عليها تندد بتدخلها في حياتها الشخصية، وقد تصرخ قائلة « اغربي عني أنت وابنك ». وستحاول أن تقنعها

« ألم اقل لك أنه وديعة بين يديك »

فتصرخ المتعسفة من جديد

آنذاك اتخذت أم نبيل قرارها النهائي لوضع حد لتعاسة حبيبها الجميل.

كانت الشقة الصغيرة عالية تقع في رأس عمارة حديثة، وأما فسحة المصعد الذي لم يتم تركيبه بعد بالرغم من وعود صاحب العمارة، فعميقة كالجب، ماذا

يحدث لإنسان يقع في حفرة عمقها عشرون متراً؟ سمعت بأذنيها صراخاً حقيقياً فاستشعرت الراحة. ليست هي المرة الأولى التي تُسجل فيها واقعة عابرة كتلك التي تصورتها وسمعت آثارها. دفعة واحدة فتسقط في الجب، تلك التي آذت الحبيب.

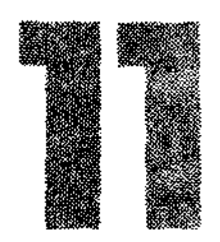
ستهوي نجاة إلى قعر الجب لترقد فيه جثة هامدة. صراخ يوقظ أهل العمارة. يخرجون من بيوتهم، يتساءلون ويبحثون. أحدهم يهرع الى القبو ليهتف بالآخرين - « ساعدوني على اخراج المسكينة » والمسكينة تغط في موت عميق. ومن سيتهم امرأة وقوراً كأم نبيل التي ستمثل صعود الدرج من جديد وهي تلتقط أنفاسها، وإذ تسمع بالهتاف تسرع مع الآخرين لتفاجأ بأن الضحية كنّتها، فتولول وهي التي لم تفعلها منذ إحضار جثة زوجها وقد هرسه برميل الزيت.

يقول واحد من السكان:

« لابد أن المسكينة نسيت أن المصعد لم يركب بعد »

وكانت منافذ المصعد قد سترت بقماش الخيش المثبت بمسامير ضعيفة، لذا فالخطأ يقع على صاحب العمارة الذي منعه الجشع من أن يسارع في تركيب الأبواب الحديدية.

تأملت أم نبيل وضع ابنها بعد الحادثة المشؤومة. ماذا يحدث له لو أنه كان يحب زوجته حقاً. عندما يعود من عمله المسائي، فهو يسعى أيضاً لتحسين وضعه بالرغم من مساعدة أمه له، ما الذي سينتابه من مشاعر وهو يرى جثة زوجه وقد اختلط لحمها بالدماء؟ إنه أمر مريع حقاً أن يصاب حبيبها الرقيق بصدمة فاجعة كهذه. إنه شيء فظيع أن يسقط إنسان في هوة سحيقة. وانفجرت في بكاء طويل



كانت عاجزة عن أن تعبر عن مشاعرها وهي تهوي في جب مخاوفها. لحظة فلحظة يتسارع السقوط كشهاب اجتذبه عمق الكون السحيق. تحاول أن تتماسك أو أن تكون غير ما آلت إليه، فلا تملك سوى الاستسلام للهاوية.

هي أحبته. لم تكن النظرة الأولى هي لحظة البداية، ولكنها أعملت عقلها فوجدت فيه عذوبة طالما افتقدتها. كان رقيقاً، وإذا تجلى قال شعراً أو شيئاً ينتمي إلى الشعر الذي سمعت مثله الكثير في أيام طفولتها الأولى، ولم تكن تعرف آنذاك أنه الكلام في حالة من الارتقاء نحو الأعلى. عندما رأته لأول مرة، كان بريئاً كطفل. وقالت لنفسها وهي تتأمل سوء الأحوال التي وصلت إليها:

« ولكنه عذب في حبه العنيف »

وهتفت وهي ترتب السرير الذي افتقد حرارته القديمة:

« أين ذهبت لحظات الحب. ماذا يحدث لي، ماذا يحدث لنا؟ »

وقالت بأسى:

« يا إلهي هل بات لنا ماض، وبتنا نتحسر عليه؟ »

ها هي الآن تشعر بالذنب. إنه ذنب عظيم أن يتحسر الانسان على لحظات سعادة باتت في عرف الزمن سابقة. تشعر بذنبها إنها ما عادت كما كانت من قبل تظهر له الشوق والود بين لحظة وأخرى. وكانت اللحظات متلاحقة. تساءلت

نجاة عن السبب. بحثت عن جرثومة البرودة التي سرت في جسد علاقتها الجميلة. وكانت في كل مرة تضيع في أفق الاحتمالات. تحاول أحياناً أن تقول إنه يساهم بصمته الذي زادت مساحته في تشجيع تلك الجرثومة على التكاثر. ولكنها وجدت في النهاية جواباً على كل ذلك

« الأب المقعد الجاثم في مركز الدار كالعقاب »

لقد دخل والدها حياتها من جديد، ويبدو أنه دون أن يدري يغتصب هناءة محبين شابين.

عندما انتقلت نجاة إلى بيت الزوجية، تركت والدها برعاية أختها الكبرى سماح، وكانت تتعاون معها في رعايته. كانت راضية عن نفسها أنها دفعت سنوات من عمرها لخدمة الرجل المقعد. وهي طالبة في المعهد التجاري ثم بعد ذلك في الوظيفة، لم تقصر لحظة بالعناية به. وها هي الآن تستحق أن تستمتع بحياتها. ولكن ما أن تزوجت حتى جاء الكبرى حظ العمر، إذ انتقلت إلى الامارات معلمة موسيقية لبنات شيخة هناك ستغمرها بالذهب والحرير، فتنسى سماح عائلتها، وهي كذلك لا تساهم بأي قرش في نفقات الوالد التي لا بد منها لعلاج يائس.

كانت أولى العقبات التي اعترضت نجاة بعد أن انتقل والدها إلى دارها، تلك الجلسات الأسبوعية للمعالجة الفيزيائية، فقد باتت مستحيلة في سكناها الجديد في الطابق الخامس من عمارة لم يركب لها المصعد بعد، فكان على الطبيب المعالج أن يأتي بنفسه مع أدواته للقيام بتلك المعالجة، وهذا وحده كان يمتص نصف دخل نجاة من وظيفتها، وأما النصف الثاني فكان يذهب إلى الصيدلية لتأمين أدوية أكثرها مهرب وتكلف الكثير. كان عبء المال قد غطى على عبء الاحساس بالأسى تجاه كائن عزيز.

لم يكن عندها القدرة على كبح حصان الغضب في أعماقها. باتت الزوجة الشابة عصبية المزاج، مهملة لحبيبها الذي تبادلت واياه الوعد بالمتعة الخالدة. وها هي الآن، وبعد أقل من سنة لا تستطيع أن تفعل له أو لعشهما الصغير ما يعطي السعادة والطمأنينة، فنظرت إلى والدها لتكتشف أنه اللغم الذي دخل الدار

ليفجرها ببطء، فتتناثر الحياة فيها شظايا لا تتوقف عن التفجير يوماً إثر يوم ولحظة بعد لحظة. تنظر إليه فتزداد ألماً غاضباً لأن الذي كان سبباً في قدومها إلى الدنيا، هو نفسه بات حفرة تقع فيها الاحلام.

كان الأب مشلول الساقين، وبات نطقه في السنوات الأخيرة بطيئاً ففضل الصمت على أن تكون كلماته مثيرة لصبر من حوله أن يصبح ضيقاً. لقد حطمته حادثة لم تكن في خطة حياته. كان يتوقع أن يعتقل أو يلصق فمه وتُغلّ يده التي تكتب. لكن السيارة التي هوت به في خندق على الطريق إلى حمص وكان ذاهباً إليها لإلقاء محاضرة، لم تكن ذات يوم في حُسبانه وهو الذي نظر إلى التكنولوجيا المستوردة نظرة عداء دائم. قالت نجاة لنفسها توبخها:

«هل تظلمين الرجل الذي كانت مقالاته تهز الناس وتعلمهم، كما ظلمته الاقدار»

وعضت على أنامل ندمها وهي تفكر

« ألم يحتوك بحنانه، ويلفك بحبه؟ كيف تفكرين إذن بالتخلص منه»

ثم تتهدج أنفاسها وتهتف:

«ولِمَ أنا من يدفع الثمن؟»

كانت عيناه تنطقان بالأسى الذي تحجر، لكنها لم تحس من قبل، وهو رمز الحيوية والتألق، أو الآن وهو نصف ميت، بأية قسوة في تلك العينين. ظلت تقرأ فيها سؤالاً يشابه الذي في عينيها: إلى متى؟

كان نبيل زوجها أول إعجاب لها برجل بعد والدها، بل وكان هو الحب الذي جاء استكمالاً لحب لم ينقطع للرجل الذي أحاط طفولتها بحنان كبير. ويبدو أن استلطافها الأول لنبيل جاء مع اكتشافها لشيء من والدها فيه، بل لأشياء لا تصدق. صدقه في الكلام «هدوء» وهو يفكر في مشكلة ثم ثورته إذا ما اصطدم برأي تافه. وعندما وقعت الواقعة وانتشل بدو رحّل جسده الساخن من بين الانقاض وأشلاء بقية الركاب، ونقل والدها إلى المشفى، عرضت أن تعطيه كل دمها أو تمنحه ساقيها. فماذا حدث الآن؟

قالت نجاة ذات مرة وقد عصبت جبينها بالمنديل:

«اليس مؤلماً أن يستمر في الحياة دون حياة»

أهي الشفقة، اما أنها أصبحت تحس بالعبء. مقعد صامت لا يشكو ولا يظهر ألماً. لا ينفعل ولا يفعل شيئاً. لا بد أن الحسرة تأكل ما بقي له من احساس، وهو لا يطلب شيئاً ويستسلم لأي أمر كطفل. إنه الطفل الذي لا يعطيك الأمل. تراه بين يدي الطبيب عجينة لا تتأوه فتصاب بالخيبة لأنه ما عاد يعرف الألم. ذابت القوة وتحول كل شيء إلى تاريخ.

هل تأفف نبيل من الضيف المقيم أبداً في داره؟ هذا لم يحدث، ولم تكن هناك اشارة منه لتدل على اعتراض أو ضيق، بل هو ذهب بعيداً في إكرام الضيف. فكان أحياناً يسقيه من ملعقة الدواء بنفسه، بل ويجلس إليه يحادثه مستفيضاً، ويهز له برأسه كأنما يوافق على لغة الصمت التي كان الأب يرسلها من عينيه، وكثيراً ما كان إذا دخل البيت توجه نحو زاويته بالقرب من باب الشرفة وجعل يلخص له أخباراً سياسية أو أحداثاً عالمية سمع بها أو قرأها في جريدة. الآ أنه لم يعد معها مرحاً كما كان من قبل. بارداً في عواطفه، وكان كل فتور يبديه تقابله هي ببرود أكبر، حتى أصبحت الحياة في الفراش متوترة تنتهي بأن تعمد هي إلى اغماض عينيها متظاهرة بالنوم، بينما هو يتسلل بهدوء ليجلس في الظلمة. وماعاد هناك من تعليق يبديه وهما أمام شاشة التلفزيون، كان يبدو جاداً وهو يتابع مسلسلاً، بينما هي تتشاغل بالابرة تحيك بها غطاء الطاولة القطني الذي لن ينتهي أبداً. برد قاتل. من الذي يفتعل الصقيع الذي لا يسمح للسعادة أن تمر من فوقه؟

هتفت نجاة

ـ «إلى متى؟»

فلم تسمع جواباً لصراخها سوى صورة الرجل المقعد تقترب من وجهها وهي تنتحب تقول:

ـ « أنا هو السبب.. انا من يضع حداً لكل الألم »

هل باتت المشاعر حقداً؟ بل إن إحساسها بالوالد بات بارداً ما لبث أن ذاب ثلجه ليكون لهباً يتأجج بالعطف والحقد. كانت تفكر هكذا:

ـ «ولقد اكتفى من حياته، فلا يجب أن يدمر حياة الآخرين»

وكانت تناقش الأمر هكذا:

ـ «أخذ كل شيء. أعطى كل شيء، وهو الآن عاجز عن أن يفعل أو يعطي أو يأخذ»

ثم هتفت في أعماقها:

ـ «يا إلهي، رجل عظيم مثله لا يمكن أن ينال الشفقة، مجرد الشفقة، جائزةً لنهاية الحياة»

وكانت تتابع تفكيرها هكذا:

ـ «يستهلك دون أن ينتج، ويصبح يوماً فيوماً غمامة ثقيلة تخيم على بيت حديث البناء بالحب، فإذ بالمحبة تتهاوى فيه مبكرة»

تصرخ نجاة:

ـ «لا يمكن لهذا البناء أن ينهدم»

وتقول لنفسها بتصميم:

ـ «يجب ان أستعيد زوجي»

وتقول بهدوء قاتل:

ـ «ما الفائدة من أن يحيا هذا العاجز سنوات أخرى. ما الفائدة من أن يعيش عصفوراً أخرس مقصوص الجناح في قفص العجز والصمت. يتنفس فقط، يتأمل، ولا أحد يفهم ما يدور في رأسه؟»

خطوة واحدة ويصبح المقعد المتحرك في الشرفة الداخلية، التي تطل على الخرابة التي لم تستثمر بعد، وباتت موئلاً للقطط الشاردة وتلال الأوساخ وبقايا أبنية من أخشاب تعبث بها الفئران وحديد يتسلح به الاطفال في حروبهم المزيفة خطت نحو الشرفة وتلمست الجدار كان يبدو لها مهتزاً لا يحتمل دفعة واحدة، وقد بني من قطع البلوك المفرّغة ضغط بسيط على الجدار وتتهاوى قطعة في الفضاء لتسقط على الخرابة تزيدها ركاماً. قالت نجاة نفسها وهي تفكر بهدوء:

ـ « لو أن العجلات تحركت باتجاه جدار الشرفة تقود الكرسي ومن عليه »
ثم أغمضت بألم:
ـ « لو أن العجلات هجمت على الجدار الهش لسقط الكرسي الى الخرابة »
قد يحدث ما يجب أن يحدث فيطل الجيران من النوافذ وشرفاتهم الداخلية ويتساءلون عن سر تلك الضحية ، فلا تسمح لهم العتمة باكتشاف الحقيقة سيعاين المحقق مكان الحادثة ، وسيكتشف بملاحظته الذكية أن ميل الشرفة الذي يراعونه من أجل جريان الماء ، هو السبب في انزلاق عجلات الكرسي المتحرك ، فكان لضغط الكرسي مع الرجل المقعد أثره في تفكك أجزاء السور ، فكانت الواقعة وهكذا مات الرجل الابنة المحبة تبكي بحرقة شديدة ، وتواسيها النسوة فتهتف نجاة بأن فقدان الأب هو الكارثة التي لا تشبهها كارثة لذا فهي ستقيم على الحزن ما دامت حية ، لكن جارة حكيمة تقول لها إن عروساً لم يمض على زواجها سنة لا يمكن أن تحزن بمثل هذا الجنون ، لأن الزوج له عليها حق ، فتقول لهم إذن فسنة حزن ، فتقول الحكيمة بل شهر يكفي ، والحزن في القلب أصلاً وليس في سواد أو بياض أو في دموع لا تهدأ
جلست نجاة تفكر تساقطت الصور الماضية ذرات متلاحقة على عينيها وبصيرتها سنون كعصور متتابعة كانت مختبئة تحت قشرة الزمن فانتفض السطح وتقافز الماضي أمامها وفي وجدانها عصر الطفولة العذبة حضن الحنان والرجل الجميل كانت أمها لا تتوقف عن توجيه اللوم الى زوجها في كل فترة من فترات العمر ، وكانت الصغيرة نجاة لا تفهم سراً لذاك اللوم والتقريع تتذكر عصر النميمة التي تطعن الروح بإبر واخزة ، لمَ الأم تحدث ابنتها دوماً عن إهمال الأب لأسرته ، وكانت نجاة تفكر بأن والدها يعطي من الحنان أكثر من الذي يأخذه تقول الأم
ـ « رجل أناني يسعى أبداً من أجل مجده الشخصي »
فلا تجد لأقوال أمها أساساً وها هو قد أصيب وهو ما زال في عزّ الرجولة ، وبات جثة تتنفس بصمت ، وهربت الأم بجلدها فلم يعد أحد يعرف عن مصيرها

شيئاً يا لعصر الصبر الطويل الصبيتان تتناوبان على خدمة المقعد الذي كان يملأ الدار بالكلام العذب واللمسات الرقيقة ، هل كانت الأم على حق ؟ قالت نجاة لنفسها

ـ « هل أنا على حق عندما أريد أن أضع حداً لكل شيء ؟ »

لو انها تسمع صراخاً بينها يهوي جسد المقعد الى القاع ، لظل ضميرها يؤنبها ويوقظ إحساسها بالذنب ، لكن الجريمة ستمر بهدوء هوذا الهدوء القاتل الذي تخشاه كذلك هدوء زوجها نبيل في الأيام الأخيرة اذ لا ينطلق بكلمة أو يعاتب.

يا إلهي اريد ضجيجاً، اريد احداً يصرخ في وجهي ، اريد صوتاً يلصق بوجهي تهمة القتل العمد مع سبق الاصرار

ـ أريد أن أطهر نفسي الآثمة هذا ما اعترفت به نجاة أخيراً يا أولياء الله المدَد المدَد يا حكماء العالم امنحوني القدرة على تمزيق الشر في نفسي وكان شيخ جامع الصروي، الذي كانت أمها تتردد عليه في أيامها الأخيرات ، هو الذي سيستقبل الصبية نجاة ويقرأ على رأسها من سورة مريم ، فتهدأ قليلاً ، لكنها تنادي ربها أن يرسل اليها أحداً تمتد كفه بصفعة تخرج من رأسها كل الأفكار المعذبة ، أو أن يبعثه بمن يضمّها اليه حناناً يخفف عنها عذابات الاثم الذي لا يطاق



زززز . . زززز . طنين لا يتوقف

الضجة تتسع زززز . زززز . الضجة اسمها الطنين الذي يملأ السمع بالشكوى وكان الأستاذ عبد المنعم يتابع الذبابــة بعينيه الكليلتين عينان جامدتان لكنهما تدوران في محجريهما تلاحقان تلك الحشرة الصغيرة

ـ « نجاة يا صغيرتي ابعدي عني الذبابة »

ونداؤه الصامت يظلّ في طنينه المتحجر جاثماً على صدره قال لنفسه

ـ « لم يحدث لي أن رأيت من قبل مثل هذه الحشرة الطائرة» .

كانت الذبابة زرقاء كغيمة طائرة في الفضاء لا تعرف لها مستقراً وجعل لمعان جسدها يشف عن ضوء متحرك الذبابة لها جناحان أسودان ولكن الحركة حولتهما الى ومض كنقطتين من جملة ضجيج لا تهدأ عن التعبير عن معناها قال لنفسه

ـ « حشرة تهدر كطائرة بهلوان »

يتذكر إنه يسترجع الطفولة الطفولة كالجني الذي قيدت حركته قنينة سميكة ما لبث زجاجها أن تناثر كانت لحظة هائلة الملعب البلدي كان يشهد حفلا كبيرا اشتركت فيه جموع الطلاب والكشافة آلاف الناس من أهالي المدينة ملؤوا المدرجات بالزحام والتصفيق جلس عبد المنعم مع رفيقته على صخرة ناتئة

عن سفح جبل الشيخ محسن ، يراقبون الألعاب والحركات الرياضية ، لكن ظهور طائرة بمحركين في سماء الملعب شدّ الأنظار اليها كان الطيار يقوم بأعمال بهلوانية فشدت الأبصار اليه ، فارتفع التهليل نحوه ونُسيت ألعاب الطلاب طائر حديدي قادر على التحليق والانقضاض ، ينزلق فجأة من أعالي السماء ، ثم ينعطف على نفسه كراقصة يفر ويكر كحصان عربي اصيل ، ثم يقترب من الأرض كالخطر الداهم ثم لا يلبث أن يذهب بعيداً في الفضاء كالغياب

- « لو أنني أقدر على قتل هذه الذبابة »

ولم ينقطع الطائر الحديدي لحظة عَن إثارة المشاعر ، يحوّم فتتعالى الهتافات ويتزايد التصفيق ، وكان الفتى عبد المنعم ورفيقاه يلوحون للطيار بالمناديل كأنهم يقولون إنهم أيضاً معجبون ببراعته ، وكانت السماء قد خلت من الطيور التي أفزعها الهدير

- « يجب ان أقتل هذه الذبابة »

لكن الطائرة هوت فجأة خيط أسود ، ثخين كجديلة ، كان يحاول ان يشد الطائرة إليه ، لكنه انشد اليها فلحق بها نحو الأرض سمع انفجار هائل ، ورأى عبد المنعم كيف غرست الطائرة رأسها في الأرض خلف سور الملعب حدث ذلك في غمضة عين ، وتحول الدخان الأسود الى لهب تصاعد في الجو ليغطي على أصوات الهلع التي تعالت في مساحة الملعب حدث ذلك والفتى عبد المنعم ما زال يتطلع بعيني الدهشة الى قدرة الطائرة على التماوج ، فقد كانت تلك المرة الأولى التي يشاهد فيها شيئاً يحلق في السماء غير السنونو وأسراب الطيور العابرة أو الحمام الذي كان هواته يطيرونه في سماء المدينة بتلويحة خرقة على عصا أو بصفير منقطع

كان يتذكر ، بل كانت الذكريات تهم عليه وكأنها جرت لتوها ، فيصاب بالرهبة ، كانت الطائرة تسقط خارج السور ، لكن الذعر الذي انتشر بين صفوف الناس سببه الظن بأنها هوت فوق رؤوسهم بعد لحظات ، كان المشهد الذي انبسط أمام الفتى عبد المنعم غريباً أسطورياً يثير الهلع ويدعو الى الابتسامة آلاف البشر من متفرجين ومشاركين في الالعاب ، انتشرت في كل اتجاه من اتجاهات

الملعب التي ما عادت أربعة   ساحة الملعب تحولت في ثوان الى لوحة ذُرت عليها كومة رمل فمرت عليها الرياح من كل اتجاه لتشتت ذراتها

ـ « تبا لك من ذبابة »

وانحدر المشاهدون الذين كانوا على سفح الجبل ، انحدروا كالسيل نحو الملعب يدفعهم الفضول أو الخوف على أحد فيه تجمعهم به قرابة أو معرفة   وكان الفتى عبد المنعم أسرعهم ، فبات خلال دقائق في قلب الملعب تدافعه المناكب بحثاً عن نجاة من خطر   وقف لحظة ، فكان المشهد أمامه أبلغ من أي فيلم سينمائي يصور مجزرة ضحاياها من الجنود الحمر   عشرات الأجساد المرمية على الأرض تدوسها الأقدام الهاربة   اطفال بل ورضع أيضاً ، وعجائز ونسوة كشفت عوراتهن   احذية وأغطية رأس سود تلتفح بها نساء المدينة عادة وعكازات ونظارات بلورية وطرابيش وعقالات   كانت أرض الملعب أشبه بمكان جرت فيه معركة عاصفة   بهت الفتى عبد المنعم وهو يرى الى خراب عام لأول مرة في عمره

ـ « الموت لك أيتها الذبابة» .

ويحاول الفتى الصغير أن يفعل شيئاً ما لامرأة تبحث عن طفلها أو لأخرى فقدت محفظتها أو لرجل فقد شاله   مشهد يثير الضحك والأسى ، لكن جثث أطفال وعجائز كانت ترعبه ، ويدهشه لصوص يلتقطون بخفة ما تركه الآخرون كل ما هو قبيح كان قد سمع به من والده أو عمته يراه الآن بأم العين

ـ « الويل لك يا ذبابة »

جعل عبد المنعم يتابع تحويم الذبابة من حوله   ثمة شيء ينبض به جسده ، قد تكون الرغبة في قتل الحشرة التي بدأت منذ الصباح هجومها عليه دون رحمة ومشهد الملعب ما زال يهم عليه بمأساته التي لا تنسى   مثل تلك الواقعة التي لصقت بذاكرته كذبابة الكلب ، كانت ، ويبدو أنها ما زالت ، تمسك به   فهل هي التي نقلته من عهد الصبا واللامبالاة ، من المرح الدائم والتفاؤل بأن كل ما حوله يمنحه الأمان والدفء ، هل تلك الواقعة هي التي دفعت به سريعاً وبلا رحمة

الى عالم الحذر والمسؤوليّة والخوف الدائم من الأعظم ؟

قال له صاحب الجريدة الذي فقد عينه في السفربرلك

ـ « اذن فهذا هو مقالك الأول »

ثم بريبة ظهرت في التماع عينه الزجاجية

ـ « قلت لي إنك في السنة الاولى من دراستك الجامعية »

ثم ضرب الصحافي العتيق بكفه على سطح المكتب المغطى بقصاصات الاوراق ، وصاح

ـ « وتريدني أن أصدق أن شاباً مبتدئاً مثلك يكتب عن فلسطين هكذا »

وكان مقاله الثاني فالثالث ، فباتت البداية حسنة للشاب عبد المنعم

ـ « الموت للذبابة »

عندما أصبح معروفاً من قراء كثيرين تابعوا أفكاره في صحف ومجلا ت وعبر الاذاعة ، قرر أن يلتزم الحذر . وكان له بعد ذلك توقيعان وهكذا اتسمت مقالاته التي حملت التوقيع المستعار بالقسوة والابتعاد عن مهادنة أو مصالحة وباتت كتابات (الهجاسي) تثير خوف ناس وإعجاب آخرين ، ولم يدرك أحد أن هذا الاسم نحت من كلمتي الهجاء والقاسي فالأستاذ عبد المنعم في حياته العادية ولأهله ومعارفه كان مثالاً للوداعة والرقة ، وهكذا كانت مقالاته التي تحمل اسمه الصريح تحمل طابع الانتماء الى مجتمع متوازن وتحتكم الى منطق علمي وأسلوب موضوعي افتقرت اليها كتابات الكثيرين

ـ «طنين. . .طنين، ما عدت أحتمله»

ومثل تلك اللعبة في الاختفاء أو الازدواج كما سماه رئيس التحرير لجريدة العاصمة الأولى ، ظلت سراً لا يعلمه إلا القلة التي ظلت تسرب الخبر حتى انكشف تماماً بعد الحادث الذي كاد أن يودي بحياة الكاتب وكان الاعلان عن ذلك السر ، كان بمثابة الإقرار بانتهاء حياة عبد المنعم الصحفية والفكرية

الذبابة ما زالت تملأ الفضاء بالضيق على صدر الرجل وعقله هل انتهى كل شيء ، وبات العجز معادلاً الحياة ؟

ـ « الموت للذبابة »

لا فكل ما حدث لا يعادل ما صنعته به حميدة

ـ « لا أظن أنكِ إلا مثلها »

كانت حميدة ، زوجه التي هجرته بعد الحادثة ، قد تركت ابنتيه أيضاً دون وداع حميدة تغيب فتحول صمت الضعف عند عبد المنعم الى صمت القهر وهكذا أطبق القهر أيضاً على الحنجرة التي طالما نطقت بالحكمة والهجاء ، وترنّمت بكلام الحنان والحب

ـ « ضربة محكمة وتموت الذبابة »

كانت حميدة الشابة تهمس منذ أن عرفها « بحاجة اليك » فهيجه نبع الحنان المغلق في صدره ، فتزوج من حميدة قال لكل الناس « حميدة هي حبي » قالت حميدة لبعض الناس « يحب عمله أكثر » الشكوى الشكوى ، هي تتأفف منذ الصباح وحتى مغيب الحيوية عن الجسد شريط من العتاب واللوم لا ينقطع ولا يتوقف حميدة ، إنني أقدم لك حياتي وأمنحك كل قطرة من النبع ، فأعطيني السكينة والطمأنينة هتف عبد المنعم في سره

ـ « الطمأنينة أو الذبابة »

وهكذا كانت الطعنة القاتلة حميدة تهرب الهجران هو فعل الخيانة الذي سيقابل بالقتل

ـ « تلك الذبابة لا تكف عن الهجوم »

نظرت حميدة الى المكتبة بحقد ثم أشاحت عنها بلؤم هي تكره كل ما له علاقة بالورق والقلم ، تتأمل ركن زوجها في الدار بضيق . من هم أعداء حميدة ؟ هكذا كان يتساءل ، ويكون الجواب مؤلماً ، فكل ما يحبه هو عدو لها لكن نظام الأسرة يجب أن يستمر ، ولن تكون هناك فرصة لحميدة أن تخرب هذا النظام

ـ « كيف يمكن لهذه الذبابة أن تموت »

ويخضع لنزواتها حرصاً على استمرار الأسرة التي يحب يساير رغباتها ، يغفر لها فظاظتها ، يقول لنفسه إنها سترق يوماً وستعلم التعاطف من ابنتيها على

أقل تقدير . نجاة وسماح ، زهرتان ينفذ أريجهما إلى أقسى القلوب فتتعلم الرقة فتاتان تدثران عمره البارد في الدار فيستشعر الدفء واحدة تمسح على شعره والثانية تعصر له الليمون ، تصغيان الى حديثه بإعجاب ، وتسألان دوماً عن ردود فعل القراء أو المسؤولين عن مقالاته . لقد بات الاستاذ عبد المنعم على مر سنوات أكثر كتّاب الصحافة شعبية وكان لرأيه الوزن الكبير في كتاب صدر حديثاً أو في معرض فني قائم ، واحترم رأيه مسؤولون ، وتطلع الى تشجيعه رسامون ومغنون وشعراء شباب وعندما كانت السيارة تدور على نفسها كأن إعصاراً جرفها لتقع في الخندق ، كان واعياً لكل ما يجري ، وتصور أن أكف الناس التي صفقت له في محاضرة ألقاها سترتفع بالدعاء له كان وجها نجاة وسماح يلتصقان بوجهه عندما استقرت السيارة في الخندق فاختلط الموت بأنفاس حياة متعثرة

ـ « سأقتل هذه الذبابة مهما طال الزمن »

كل التهديدات لم تجدِ معه نفعاً لم تخفه تلميحة بزجر أو عقاب كان يؤمن بأن الكلمة الصادقة لا يفزعها إنذار كان بعض الذين عرفوا أنه صاحب توقيع الهجامي ، قد حاولوا استرضاءه كي يكف عن الهجوم على أفعالهم ، فيئسوا فكان الوعيد وكان الأستاذ يزداد عناداً قالت له حميدة ذات مرة :

ـ « ولمَ تحمل السلم بالعرض ؟ أنت خاسر في النهاية »

وهتف عبد المنعم في سره :

ـ « سأنتصر عليك أيتها الذبابة »

وحطت الحشرة على أنفه فجاهد أن يحرك رأسه ببطء ، لكن الحركة لم ترهب الحشرة كان يحلم في تلك اللحظات أن تعود الحياة الى واحدة من ذراعيه فيتابع الكتابة ويطبق على أي شيء سيء سمع به أو رآه كما يمكن له أن يطبق على تلك الذبابة

ـ « القتل القتل القتل »

وطارت الذبابة يلاحقها طنينها كانت تبتعد عنه لتقترب من زاوية أخرى . قلبه يطفح بالحقد عليها ، هو عاجز تماماً عن أن يفعل أي شيء حميدة

تأتيه من بعيد ، وكأنها تخرج من شق في الحائط وتتوجه نحوه فلا تصله أبداً . كان لصوتها وهي تؤنبه وقع الطنين على أذنيه حميدة تصرخ في وجهه والذبابة تحوم حوله ، تخترق رأسه ؛ همهمات حادة تتطاير في الجو ، يريد أن يتحرك ، أن يصرخ ، لكن الصمت المرعب في الدار لم يمزقه سوى هدير الذبابة تنقض عليه وكأنها في جولتها الأخيرة

ـ « نجاة نجاة »

لكن أحداً لا يسمع ، فهتف بضعف رددته جدران العجز بداخله

ـ « الموت الموت »

لكن هدير الحشرة الذي استيقظ من جديد جعله يفكر بطريقة أكثر مكراً للتخلص من الذبابة



هتفت ليلى بالذبابة التي حطت على اللوحة الفارغة لتطير في لحظات :

ـ « اذهبي . ليس لك مكان »

لكن الذبابة دارت من جديد حول ليلى ، لتمرق بطنينها بالقرب من سمعها ، وكأنها تسجل احتجاجاً على طردها ، فابتسمت ليلى وتمتمت « دعيني أرجوك » ، وعادت الى اللوحة تتأمل مساحتها الهائلة وتفكر في لحظة البداية

الخريف متقلب المزاج ، ولكن الدفء كان يسطع بالنور الذي كشف اللوحة الكبيرةأمام بصر الصبية فشعرت بالحيرة والمودة كانت اللوحة التي جمعت ليلى أجزاءها من صناديق الكرتون التي يحضرها (قيس) والدها ، ممتلئة فاكهة وأطعمة من لبنان أو من دول مجاورة من تلك التي يسافر إليها بشاحنته ، كانت اللوحة قد غطت جانباً كبيراً من أرض السطح الممتد أمام الدار العالية ، وتحولت الى رقعة سمراء تأملتها الصبية من كل زاوية فوجدت أن الحلم قد يتحقق . كانت المساحة أمام ليلى تنتظر الألوان والخطوط لتحقق الأفكار الممتلئة بالحيوية والحياة . كانت تتسع كلما تنفس حلمها بشيء جديد

في البداية كانت ليلى تريد أن ترسم ذلك المشهد المستدير من المدينة حيث سمح لها ارتقاء السطح بالإطلالة على منظر بانورامي هائل جبل العظام ، كان على يسار العمارة بقبوره التي لا تحصى ، ومن الأطراف الأخرى كان جانب صغير

من القلعة يظهر بصعوبة من بين أعمدة هوائيات التلفزيون التي توجت رؤوس العمارات المتكاثرة ، وانكشف الشمال عن تلال صغيرة تغطي الأفق كانت تعد منذ زمن من أجل لوحة كبرى تمثل المدينة ، ولكن الأمور تغيرت

عندما ابتدأت الصبية بالرسم ، كانت أمها قد ماتت بحمى النفاس ، وهكذا تحول الحزن المبهم الى غضب تعبر عنه الخربشات ، ثم الى رغبة في التعبير عن توق الى صنع حياة تخصها بعد أن ضاعت حياة أمها فجأة ودون سابق انذار باتت الصغيرة هي الحياة لقيس والدها

وكان ينظر الى محبوبته الوحيدة والأخيرة ، فتدمع عيناه ، فلا يجد عندما يعود الى الدار من سفر طويل سوى الهدايا يغمرها بها ثم تحولت الهدايا مع الايام الى أقلام ملونة وأوراق سميكة ، ومن ثم إلى ألوان مائية وفراش متعددة النمر ، اذ تبين له أن ابنته الحلوة تحب الرسم كما تعشق الوحدة وانتظاره في غيابه المستمر الذي لا ينقطع كان قيس قد تعب من قيادة الشاحنة في المسافات الطويلة ، لكنه قرر الآ يستسلم حتى تصبح المحبوبة امرأة كاملة تستطيع السير من دونه في طريق الحياة الصعب

في البداية ، احتارت ليلى من أية نقطة تبدأ . كانت لوحتها كبيرة كسماء الأصيل التي تظللها فتتطلع اليها باحثة عن مكان لها فيها فلا تجده . اضطرت في البداية الى الزحف على ركبتيها نحو أركان اللوحة من أجل أن تحدد نقطة البدء في تكوين اللوحة ، لكنها في اليوم التالي وبعد عودتها من المدرسة واعداد الطعام لوالدها الذي سيأتي قبل منتصف الليل ، قررت أن ترسم غابة كبيرة ، غابة ليس لها حدود بحيواناتها وأشجارها وأزهارها ومفاجآتها التي كانت تتوالد دون توقف

وهكذا ، ابتدأالأمر بشجرة جوز تحمل الثمار الخضر وكأنها سماء داكنة بنجوم لا حصر لها ، ثم بشجيرات لم تعرف لها اسماً ، ثم رسمت شجرة هائلة كان من المفروض أن تكون سنديانة هرمة . طارت الذبابة في دورة ، كأنما تراقب الصبية الصغيرة وهي تلتصق بجسدها ووجهها باللوحة،وراحت تنثر الاقحوانات وشقائق النعمان على اطراف البركة المتعرجة وقد شفَّ الماء فيها عن سمك أحمر وعلى

صخرة تطل على البركة نام تمساح كبير وكأنه يحلم بصداقة أهل الغابة. طنت الذبابة فلوحت ليلى بكفها تبعدها ، وتابعت استكمال الغابة التي كانت تولد في رأسها عشبة فعشبة وظلاً فنوراً

علمتها الوحدة في الدار أن تتأمل وتقرأ وتنظر ، وقد حولت الغرفتين الصغيرتين الى معرض دائم لأوراقها المتبدلة وأما السطح فبات الآن حامل لوحتها التي ظلت تحلم بها كل أيام الدهشة مما يجري في هذا الكون ،من قسوة وحنان ووحشة وأحلام كانت ليلى قد فازت في طفولتها في مسابقة الطلائع الكبرى بالمرتبة الأولى ، فكان الأطلس الملون الذي قدم لها جائزة لتفوقها ، نافذة على عالم جديد فأدمنت تصفح أوراقه ، فرأت العالم من حولها قد تغير وبات شيئاً آخر مقبرة جبل العظام مثلاً ، كانت تراها وكأنها تضاريس لقارة بعيدة ، وهوائيات التلفزيون ، كانت تشاهد فيها جيوشاً من فرسان طيبين يتحدرون من سلالة الغيوم لتسليتها بمغامراتهم المثيرة وحكاياتهم التي لا تصدق كان والدها قد وعدها ذات مرة بإحضار تلفزيون مهرب لتسلية وحدتها ، لكن عدم اصرارها وضعف موارده المالية ، جعلها تلجأ الى الأحلام التي لا تنقطع ، فترتسم في المخيلة صور وأفكار وتمتلىء الأوراق بالأشكال

تلك ، كانت لوحتها الكبرى ، أو المشروع الذي كرست كل تجاربها من أجله أول مساحة ستجرب فيها استخدام الأقلام الملونة الى جانب الألوان المائية والحبر الصيني الأسود وكان اتساع مساحة اللوحة يسمح لها استخدام الأطراف الأربعة وهكذا بدت ليلى كسابحة في بركة جفّ ماؤها ،ولكنها حولت الزحف على أرضيتها الى سباحة ممتعة تضع خطاً ، تضيف بقعة ، تبتعد لتتأمل ،ثم تقف على قدميها لتطل على مشروع الغابة الكبيرة طنّت الذبابة فهتفت ليلى بود .

ـ « اذهبي ليس لك مكان »

بقع مزركشة ، فكان الفهد ثم كان الضبع ، وتحولت الأفعى التي التفت على جذع الشجرة الى عروس زينها أهلها بالبرقع والحناء ووقفت البومة على غصن تراقب أقصى البعيد ، بينما الخلد كان يمد رأسه من ثقب في الأرض معلناً عن

كسر عزلته ودخلت ليلى في الغابة ، فأحبت الهدهد وقد انتصب بجسده الصغير كعلم يتوج رأس الأسد ، الذي بدت الابتسامة على وجهه وكأنه لا يريد أن يتحرك خوف ازعاج صديقه الطائر الصغير ، بينما اعتز الفيل بخرطومه وهو يجاور الجمل الذي تكرر سنامه على ظهره كتعاريج هضبة تحول فيها العشب الى وبر جميل

حدقت ليلى ، وقد أتعبها الاستلقاء على الأرض فطلبت راحة قصيرة ، فإذا برجل على سطح العمارة المجاورة يطعم طيوره ، فأدخلت سربه الى لوحتها وكأنها بسرعتها تسابق تحليق تلك الطيور ، وحامت الذبابة حولها فهمست ليلى برقة لم تفارقها :

ـ « لا تضايقي ليلى يا ذبابة »

ونظرت الرسامة بعد قليل ، تتأمل تضاريس جبل العظام ، فوجدت فيها سرباً من السنونو المهاجرة ، فرسمت عشرات منها على سماء الغابة الذي اكتظ بكافة أنواع الطيور . وانكبت على الأعشاب المختلفة الأشكال والأطوال والألوان فسجلتها على أرض الغابة وكأنها الزخرفة التي تعطي للوحة بهاءها ، فوجدت خنفساء لها مطرحاً بينها ، وكذلك الزيز والضفدعة والضَّب ونظر قرد من خلف شجيرة وكأنما يدعو مشاهده الى لعبة مسلية ، بينما الغورلاَ احتلت حجماً أمام صخرة ، وكانت تحمل على ساعدها بجعة بيضاء شكلت مع سوادها حركة وحيوية صفقت لها ليلى وكانت الذبابة تطن ، وكأنها تئن شوقاً الى مكان لها في اللوحة . لكن ليلى أصرت وهي تقول :

ـ « ليس لك مكان »

وبدا الذئب مع الغزال ، وكأنهما في نزهة أصحاب ، كذلك الثعلب مع ديك ودجاجة . وتدلى الخفاش من مخلبيه ، فبدا في سقف الكهف الذي ظهر جانب منه عند طرف اللوحة كضوء مطفأ وخيل للصغيرة أن القُبّرة وقفت قبالة الصقر ، تسليه بصوت شجي وحلق في الجو نسر فتي فأعجبت الرسامة بكبريائه ، لكنها ما لبثت أن وضعت بقربه حماراً بأجنحة فظهر وكأنه يسابق النسر في التحليق البعيد وصفقت الرسامة فرحة وهي تتابع تشكيل الغابة :

ـ « يا لها من عالم جميل سعيد »

وتسلل الصلّ من خلف الدب الذي نظر اليه بمودة ، وبينما الثور يرعى العشب ، كان الأرنب يشاركه طعامه وكأنهما مدعوّان مميزان الى وليمة وامتلأت شجرة البلوط بالسناجيب الرمادية ، وظهر الشمبانزي كضيف محبوب عليها ، وقد مدت الزرافة برقبتها نحو سكان الشجرة فبدت وكأنما تلقي موعظة عن الصداقة ووقف طاووس بألوانه التي استغرقت من ليلى زمناً لتكون نقشاً بارزاً يخطف الابصار ، بينما مالك الحزين ، تخلّ عن كل شيء ليكون متفائلاً في الغابة الودودة وطنت الذبابة من جديد وساءت العتمة وظلت ليلى تنتظر والدها الذي لم يحملها كعادته الى فراشها بعد نوم الانتظار على المقعد وفي اليوم التالي ،وكعادتها وهي تغفر للغائب تأخره ، ذهبت الى المدرسة ، وعادت لتعدّ الطعام كسيدة محنكة ، ثم لتتابع رحلتها في الغابة من جديد

كانت السلحفاة مطمئنة ،وتفتحت أزهار أخرى تحت ظلال الأشجار الباسقة وطنت الذبابة وهي تحوم حول ليلى ولوحتها ، فهشت عليها بالريشة ، لكن الحشرة الصغيرة كانت قد لصقت بأقدامها في اللون الطري فقالت ليلى ضاحكة :

ـ « لا بأس ، سأدخلك الغابة ، وان كنت لا علاقة لك بها »

وهكذا أخيراً ،وجدت الذبابة لها مكاناً في الغابة

كانت ليلة منكبة على الكنغر ترسم ذيله عندما سمعت زئيراً نظرت تبحث عن السر ،فكان الأسد غاضباً ، بينما الذبابة تحوم حوله تضايقه بطنين لا يحتمل ، فرفع كفه الهائلة القوة وضرب الهواء فأصاب الفيل ليمزق ساقه ، فذعر الفيل وهرع يركض فداس الصلّ بقدمه الثقيلة ، فهاج الصلّ وعض الدب الذي دار حول نفسه متألماً فوقع على التمساح الذي هاجت أسنانه لتطبق على ساق الغورلاّ ، بينما الهدهد الذي طار إلى رأس الشجرة جعل ينادي « الخطر الخطر »، فساد الغابة ذعر لا مثيل له ودبت الفوضى ، فانقض النسر على قطيع الغزلان ، فانتهز الذئب الفرصة لينقض على صديقه الغزال ، وهربت الطيور والصقر يلاحقها

بالعدوان ، بينما دفنت النعامة رأسها في الرمل ، وداست الثيران الأزهار بأقدامها ، ولاحق الفهد بجعة خائفة ، وتحولت الحكمة في وجه البومة الى نذير بالخراب ، وذعرت اسماك البركة فتقافزت في الهواء لتسقط على اليابسة ميتة ، وتسللت الأفعى نحو التيس المستغرب ما يدور من حوله لتلتف حول عنقه بعضلاتها القاتلة ، وهتفت ليلى بحرقة :

- « ماذا فعلتِ بغابتي »

لكن الذبابة الصغيرة ظلت تطن بشغب متصاعد ، فيزداد الهياج في الغابة ، كأنما الجنون مسّها أو أنها شريعة جديدة غير معروفة من قبل قد فرضت أحكامها على الحديقة الجميلة المسالمة الهادئة

كان قيس قد وصل بصعوبة الى الطابق الاضافي ، بعد أن أمضى يوماً في البرية مع شاحنته التي خربها مطر عاصف . تصلبت عضلاته وضعفت مقاومته ، لكن خوفه على ليلى هو الذي اعطاه في الدرجات الأخيرة القوة على القفز للوصول الى الدار كان المكان هادئاً ، والظلمة تسود أركانه ، بالرغم من أن الليل كان ما زال في أوله لم تكن ليلى نائمة على المقعد أو الاريكة كعادتها ، فذعر الوالد وخرج الى السطح ، فكانت الصغيرة مستلقية على الأرض دون حراك ، بينما زخات خفيفة من مطر حمله غيم الخريف المبكر تبلل ثوب ليلى وشعرها همّ عليها مشفقاً ، وضمها الى صدره برفق ففتحت عينيها اللتين امتلأتا بلمعان كدموع خيّل اليه أنها من آثار المطر . بينما لوحة كبيرة امتدت امامها وقد اختلطت الألوان فيها لتتحول الى شيء أشبه بأرض بكر لعبت بها السيول فتمازج الصخر بالتراب والعشب البري بالحصى تساءلت عيناه ، لكن الصغيرة تعلقت به وكأنها تقول له صامتة « احمني »، فحملها بين ذراعيه الى الداخل كانت اللوحة الكرتونية قد تأثرت بالمطر لكنها ظلت في فوضاها متماسكة كانت ليلى ترتعش من البرد وتتمتم بصوت مرتعش كالهذيان :

- «الذبابة . الذبابة»

وتساءلت عينا الوالد من جديد عن معنى الذبابة ، لكنه آثر الصمت وهو

يضم الوحيدة الى صدره الداقىء ، كأنما يدفع عنها خطراً كان أو ما زال في جوف الآتي ، الذي لم ينفك هو لحظة عن التفكير به والتحسب له وقد ظلت الأمطار بعد ذلك تشتد وتشتد ، الى أن سمع لوقع حبّاتها على سقف الدار صوت نذير بدمار قادم ، فازداد تعلق الوالد بليلى التي ظلت فترة طويلة تتمتم « الذبابة الذبابة »، الى أن أغمضت كملاك أصابه ذعر كبير . .

حلب ٢٨ / ١٠ / ١٩٨٩

ملحمة القتل الصغرى

إنها دورة القتل الذي لابد منه.

أهي دعوة إلى فعل الشر، أم أنه الكشف عن حقائق في النفس البشرية دفعت بها نحو حافة الهاوية ظروف وأحداث قاهرة؟.

وليد اخلاصي في روايته الجديدة، قد لا يجيب على أسئلة وحسب، بل يحاول أن يذهب في كل اتجاه من الحياة الظاهرة والباطنة لمجتمع الغابة، ليكشف عن الكارثة: رغبة القتل!.

«ملحمة القتل الصغرى» سلسلة من أحداث تصنعها اندفاعات أفراد حقيقيين قد كشف قانون الغابة عن غرائزهم الدفينة، وهي كذلك فعلٌ في القصّ يحيل الواقعي إلى عجائبي.

.. وبينما (الملحمة) كانت في التاريخ لتصوير بطولة الإنسان في تحدياته العظيمة، فإن هذه الرواية تمشي في الاتجاه المعاكس بسخرية شفيفة من كل مايحاول أن ينزع عن جسد الإنسان وروحه ثياب إنسانه الجميل.

* الناشر

